رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة الإسلامية والانفتاح على الآخر
مقاربة في الأبعاد والشروط والتفاعلات

إعداد

الدكتور محمد زرمان

الأستاذ بجامعة باتنة - الجزائر

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م

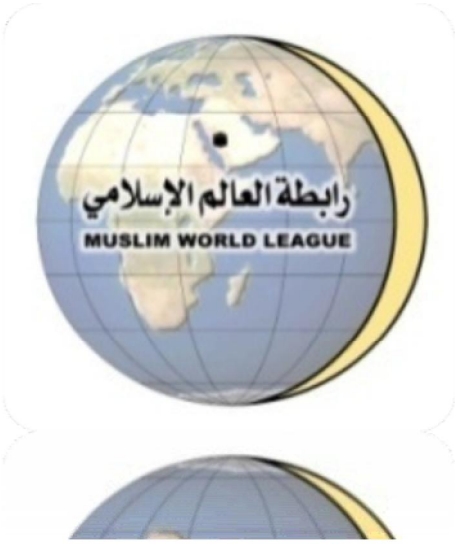

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الانفتاح على الآخر: حركة ثقافية إيجابية واعية طبعَت النشاط الإنساني الفكري منذ آماد بعيدة؛ لأنها فطرة مركوزة في البشر، وكانت لها آثارها الجليّة في تفاعل مختلف المجموعات البشرية وتواصلها، وتكاتفها في إثراء المعارف الإنسانية وتخصيبها، وتطعيم حركة التحضّر التي تراكمَت بفعل الجهود المتواصلة والمتعاوِنة عبر الزمن الممتد.

والثقافة الإسلامية التي ألقَت بظلالها الوارفة على ربوع العالم لمدة تزيد على ثمانية قرون، وضخَّت في عروق الحضارة الإنسانية دماء الحياة، يشهد التاريخ أنها كانت من أكثر الثقافات العالمية تجسيداً لمبدأ الانفتاح على الآخر، حيث انفتحَت منذ لحظاتها الأولى على جميع الحضارات والثقافات التي سبقَتها، وحدَث بينها تفاعل عميق تماشيًا مع مبدأ الإسلام الذي لا يعادي الاستفادة من الكسب البشري حيثما كان لتعميق التجربة الإنسانية وإخصابها، واستجابة لدعوة القرآن الكريم المُلحّة للسير في الأرض ودراسة المدنيات القديمة والتنقيب عن آثارها والنظر في عواقبها والاستفادة من مُنجزاتها.

وبقدر ما أعطَت هذه الثقافة للشعوب التي احتكّت بها؛ بقدر ما أخذَت منها ما غذَّاها بدماء جديدة، وأمدَّها بالروافد البَناءة التي أسهمَت في نموها وتطورها، وأثبتَت بالتجربة الحية أنها لا تخشى المواجهة الفكرية، ولا تستمد قوَّتها من الانغلاق على ذاتها؛ بل من قدرتها الذاتية على الإقناع والتفاعل الإيجابي الحي مع الآخر.

والانفتاح الثقافي الذي مارسَته الثقافة الإسلامية مع الآخر؛ كان محكوماً بجملة من الشروط التي حَددَت مجالاته وضبطَت إطاره حتى لا يَخرج عن نطاقه الإنساني ويتحول إلى نوع من الغزو الفكري والاستلاب الحضاري، ومنها: الاعتراف بالآخر واحترام وجوده الفكري وكيانه الثقافي، والحفاظ على الخصوصيات الحضارية باحترام المعادلة الاجتماعية للأطراف المنفتِحة على بعضها، حتى لا تتعرض ثقافتُها لمحاولات التفكيك والإلغاء التي تَقضي على قدرات النمو والتجدد فيها، والتكامل والمشاركة والأخذ والعطاء الذي يُنتج الثراء الفكري والغِنى الحضاري والتقارب الإنساني، والانتقال السلمي والطوعي والهادئ لأشكال الانفتاح بعيداً عن ممارسات القوة والهيمنة والقهر والإخضاع.

خصائص الانفتاح الثقافي:

١- التسامح الديني والفكري الذي ضمِن لأصحاب الديانات والمِلل المختلفة حرية العقيدة، وأمَّنهم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، فاندمجوا في حركة المجتمع الإسلامي بكل قوة، وأسهَموا في نموه بكل ما ورِثوه من معارف وتراث غنيّ، ومنها: حرية الفكر والتعبير التي فتحَت نوافذ العقل الإسلامي على جميع التيارات والمذاهب، وأتاحت له الاحتكاك بها ومجابهتها بقوة الحجة.

٢- التنوع الذي تجلّى في تفاعل الثقافة الإسلامية مع كل الحضارات القديمة دون تمييز أو إقصاء، فتمخَّض عن ذلك قوة حضارية ذات طابع إنساني راق.

٣- العمق والخصوبة، إذ لم يكن هذا الانفتاح بسيطاً سطحياً، بل كان عميق الامتداد، ضرَب بجذوره في أعماق المجتمع، واستوعب كل

طبقاته، واشتمل على كمٍّ هائل من المعارف الإنسانية؛ ابتداءً من أعلى درجاتها كالفلسفة والرياضيات والفلك والطب والفيزياء وغيرها، وانتهاءً بالأكل والشرب واللباس والأعياد والعمران والفنون وغيرها، كما امتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن المحيط الهندي والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والخزر والروم شمالاً.

وإذا كانت الثقافة الإسلامية قد حملَت للأمم والشعوب المفتوحة الإسلامَ واللغةَ العربية اللذين أحدثا في الساحة العالمية هزّة حضارية كبرى، وصاغا الإنسان صياغةً جديدة مَبنية على عقيدة التوحيد التي حرّرَت الإنسانَ وأطلقَت العنان لملَكاته العقلية والنفسية، وقدمَت له منظومة معرفية وسلوكية راقية مستمَدة من الوحي الإلهي، فإنها قد تفاعلَت بقوة مع الثقافات والحضارات التي سبقَتها، واستلهمَت منها أحسن ما أنتجَت وأفضلَ ما أثمرَت، وكيَّفَتها حسب مرجعيتها، وفتحَت بها في العلوم فتوحًا غَرَّاء، وسارت بها أشواطًا بعيدة في مضمار التقدم، فكانت لها صلات ثقافية وثيقة مع الحضارة الفارسية واليونانية والهندية والصينية وغيرها، ثم قدمَت ثمرةَ هذا التفاعل والانفتاح سائغًا طيّبًا للنهضة الأوروبية الحديثة التي اقتبسَته من الأندلس وصقلّية وتُخوم الشام، واتخذَته قاعدة لانطلاقتها التي لا تزال إلى يومنا هذا تحُث الخُطى نحو الأمام.

وتَطمح هذه الورقة إلى الإجابة عن السؤال الأهم: **ما موقعية الانفتاح على الآخر في نسيج الثقافة الإسلامية؟** وتتفرع عنه تساؤلات أهمها: ماهي الأبعاد والدلالات التي تكتسيها مصطلحات: الثقافة الإسلامية، والانفتاح، والأنا والآخر؟ وما هي أبرز تجليات هذا الانفتاح في علاقة الثقافة الإسلامية بالآخر؟

وما أهم الشروط والضوابط التي تحكّمت في هذه العملية؟ وما أهم الخصائص والمميزات التي طبعَت هذا الانفتاح؟ وكيف نستطيع وضْع استراتيجية شاملة، محددة الأبعاد، متكاملة المعالم، لانفتاح الثقافة الإسلامية على العولمة، وضرورة تجديد نفسها وتفعيل طاقاتها الكامنة لمواجهة تحديات العصر؟

أولاً: الإطار المفاهيمي للبحث

تستلزم طبيعة البحوث العلمية أن تكون المصطلحات الموظفة فيها واضحة الدلالة ودقيقة المعنى، وأن تكون دلالاتها وأبعادها محددة صريحة، لتؤدي الغرض منها، لذا يتعيّن علينا أن نضبط مصطلحات البحث ومفاهيمه، لأنها الوعاء الذي تطرح من خلاله الأفكار، فإذا ما اضطربَت هذه المصطلحات اختلّ البناء الفكري، وتميَّعت حقائقه، وسنحاول فيما يلي الوقوف عند مفاهيم الثقافة الإسلامية، والانفتاح والأنا والآخر، باعتبارها مفاتيح البحث.

أ- مفهوم الثقافة الإسلامية:

مصطلح الثقافة مشتق من كلمة ثَقَفَ بمعنى: الذكاء والفطنة والفهم والتعديل والتقويم، وفي المعاجم العربية أن ثقَف تعني: حذَق وفهِم وضبَط ما يحويه وظفَر به، وتعني: فَطِنٌ، ذكيٌّ، ثابتُ المعرفة بما يحتاج إليه، ومن معانيها أيضاً: التهذيب والتشذيب والتقويم والتسوية بعد الاعوجاج: «يقال: ثَقُفَ الرجل ثَقفاً وثقافة؛ أي صار حاذقاً فطناً، وثَقِفْتَ العلم أو الصناعة في أوهَى مدة: إذا أسرعتَ أخْذه، ويقال: ثَقَّف الصبيَّ أي أدَّبه وهذَّبه، وثَقُفَ الرماح أي سوَّاها وقوَّم اعوجاجها»[1].

---

(١) راجع: لسان العرب، ج١٠، مادة ثقف، والقاموس المحيط، ج٣، مادة ثقف.

وقد استخلص نصر محمد عارف من هذه المعاني مفهوماً خاصاً للثقافة جمَعه في قوله: «مفهوم الثقافة في اللغة العربية يَنبع من الذات الإنسانية ولا يُغرَس فيها من الخارج، فالكلمة تَعني تنقية الفطرة البشرية وتقويم اعوجاجها ثم دفْعها لتوليد المعاني الكامنة فيها وإطلاق طاقاتها لتُنشئ المعارف التي يحتاج إليها الإنسان، وتعني أيضاً البحث والتنقيب والظفَر بمعاني الحق والخير والعدل، وكل القيم التي تُصلح الوجودَ الإنساني وتهذبه وتُقَوِّم اعوجاجَه، ولا يَدخل فيه تلك المعارف أو العلوم أو القيم التي تُفسد وجود الإنسان، ولا تتسق مع مقتضيات التهذيب والتسوية»[١].

غير أن تراثنا العربي لم يَعرف هذا المصطلحَ ولم يُوظّفه علماؤه في مؤلفاتهم، فهذه الكلمة: «لم تكن شائعة الاستعمال في أيامهم، فلم نجدهم ينعتون العلماء أو الباحثين بها، كما أنهم لم يتناولوها بدراسة مستقلة أو مميزة»[٢]، وإنما طرأَت على الساحة العربية في العصر الحديث وافدةً إليها مع فيض الثقافة الغربية التي أغرقَتها، لذلك فهذا المصطلح لا يَستمدّ مفهومه الدقيق من المعاني اللغوية العربية بقدر ما يستمدها من مفهوم المصطلح في بيئته الغربية، والذي يعني في أشهر تعريفٍ له: «ذلك الكل المُركَّب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القُدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع»[٣]، وبعد أن تمَّ تبنّيه وُضِعَت له التعاريف المختلفة.

---

(١) نصر محمد عارف. الحضارة – الثقافة – المدنية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص٣١.

(٢) مفرح بن سليمان القوسي. تعريف الثقافة الإسلامية.

http://www.alukah.net/culture/0/862 /

(٣) نصر محمد عارف. الحضارة – الثقافة – المدنية، ص ٢٠.

فقد عرَّف المجمع اللغوي العربي الثقافة بأنها: «جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق بها»[١]، وعرَّفها بعض التربويين بأنها: «مجموعة الأفكار والمُثل والمعتقدات والعادات والتقاليد والمهارات وطرق التفكير ووسائل الاتصال والانتقال وطبيعة المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الواحد»[٢]، وعرَّفها بعض المفكرين والباحثين بأنها: «التراث الحضاري والفكري في جميع جوانبه النظرية والعملية الذي تمتاز به الأمة ويُنسب إليها، ويتلقاه الفرد منذ ميلاده وحتى وفاته»[٣].

والثقافة بهذا المعنى مفهوم شامل يستوعب نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الكون، ويستغرق أيضاً أنماط سلوكه المختلفة، ونظراً لارتباط الثقافة بخصوصيات الأفراد والمجتمعات التي تصنع هويتهم وتميّزهم؛ فإنها تختلف من حضارة لأخرى، إذ لكل حضارة ثقافتها التي تستمد خصائصها من طبيعة مرجعيتها الدينية والفكرية ونوعية تراثها وأساليب عيشها وطرق تفكيرها وتعاملها مع الحياة، لذلك عرَّف مالك بن نبي الثقافة بأنها: «مجموعة الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح -لا شعورياً- العلاقة التي تَربط سلوكَه بأسلوب الحياة في الوسط الذي وُلد فيه»[٤]، وجمع القرضاوي مكوناتها في قوله: «فالثقافة أفكار ومعارف وإدراكات ممزوجة بقيم وعقائديات ووجدانيات تعبّر عنها أخلاق وعبادات، وآداب وسلوكيات، كما تعبّر عنها علوم وآداب، وفنون متنوعات،

(١) رجب سعيد شهوان وآخرون. دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٨.
(٤) مالك بن نبي. مشكلة الثقافة ، ص ٧٤.

وماديات ومعنويات»[١].

أما الثقافة الإسلامية فهي نتاج التفاعل القويّ الذي حصل بين العقل الإسلامي والمرجعية المقدسة (القرآن والسنة)، لأن الوحي هو حجر الزاوية فيها، فقد انسلخ المسلمون عن الجاهلية التي كانوا يعيشونها انسلاخاً كلياً واستبدلوها بالحياة الإسلامية الجديدة التي صاغَت شخصياتهم صياغة مختلفة في كل شيء، فتكوَّنَت - تبعاً لذلك - ثقافة جديدة ذات خصائص وميزات مستمدة في أساسها من القرآن الكريم والسنة النبوية اللذين طبعا كل خصائصها وسماتها، ومنهما انبثقت كل: «العلوم والمعارف والأفكار والمعتقدات والفنون والآداب والأخلاق والقوانين والأعراف والتقاليد والمدرَكات الذهنية والحسية، والموروثات التاريخية واللغوية والبيئية التي تصوغ فكر الإنسان وتَمنحه الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية التي ينشأ عنها سلوكه العملي في الحياة»[٢].

وقد ظلت أصول هذه الثقافة ذات المصدر الرباني؛ ثابتة الحقيقة والمفهوم غير قابلة للتغيير، وعلى أساسها بُنيت كل المعارف والعلوم التي عرفَتها الحضارة الإسلامية، يقول علي سامي النشار:«والحياة الإسلامية كلها ليست سوى التفسير القرآني: فمن النظر في قوانين القرآن العملية نشأ الفقه، ومن النظر فيه ككتابٍ يصنع الميتافيزيقا نشأ الكلام، ومن النظر فيه ككتاب أخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق، ومن النظر فيه ككتاب للحُكم نشأ علم السياسة،

(١) يوسف القرضاوي. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ص ١٤.
(٢) عبد السلام الأحمر. ثقافة الأمة الوسط. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو. ١٤٣٠ - ٢٠٠٩. ص ١٠.

ومن النظر فيه كلغة إلهية نشأت علوم اللغة...وتطوُّر العلوم الإسلامية جميعاً إنما ينبغي أن يُبْحَث في هذا النطاق: النطاق القرآني؛ فيه نشأَت، وفيه نضجَت وترعرعَت، وفيه تطورَت وواجهَت علوم الأمم ، تؤيدها أو تُنكرها في ضوئه»[١].

خصائص الثقافة الإسلامية:

١- أنها ربانية المصدر، فهي تستمد تصوراتها ومفاهيمها من الوحي الإلهي: القرآن الكريم والسنة النبوية.

٢- أنها إنسانية، تحترم الإنسان وتراعي فطرته وكرامته وحقوقه الأساس، فهو مكرّم بإنسانيته قبل ديانته.

٣- أنها أخلاقية، فالأخلاق فيها ثمرة الإيمان الصادق.

٤- أنها متسامحة تعترف بالآخر ولا تُقصيه ولا تُفْنيه.

٥- أنها وسطية تقف بين الإفراط والتفريط والتشدد والتساهل، وتَبني كل مكوناتها على التوازن بين العقل والوحي، والجسم والروح، والثابت والمتحول، والنص والاجتهاد...[٢].

٦- أنها عالمية لا تختص بجنس معين، بل تتوجه إلى الناس جميعاً.

ونظراً لصلتها الوثيقة بالإسلام بكل أبعاده ومعانيه؛ فقد آثر بعض الدارسين أن يعرِّفها بأنها: «الحصيلة العملية والفكرية لتفاعل الإنسان مع الحياة والكون

---

(١) علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.، ج ١. ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) راجع: يوسف القرضاوي. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق. ص ٢٣ إلى ٣٠.

بوجود العقيدة الإسلامية والانتماء إلى الإسلام موجِّها ودافعا وهُوية»[١].

ب- مفهوم الانفتاح:

الانفتاح مصطلح حديث نشأ في أحضان الحضارة الغربية للتعبير عن طبيعة العلاقة التي تربط الفكر اللاديني الحر بالعالم، في مقابل مصطلح الانغلاق الذي وُصفَت به الكنيسة التي كانت تعادي العلم وتعارض مقولاتِه، وتحارب أصحابَه، وتُصرّ على أن تَسير الحياة وفق منظورها الضيق، ثم تطوَّر هذا المصطلح مع ما شهده العالم من تغييرات جِذرية في علاقاته تبعًا لما أفرَزَته الثورة التقنية من سهولةٍ في الاتصالات والمواصلات التي أفضَت إلى تقارب العالم تقاربًا لم يَشهده من قبل، وبات ضروريًا أن تنفتح الثقافات والمجتمعات على بعضها بعضًا وتتقبل بعضها بعضًا؛ حتى يَسهل التعايش بينها في عالم ارتبطَت أطرافه بشبكة معقدة جداً من المصالح والعلاقات، ونشطَت فيه حركة الهجرة وتنقُّل الأفراد بين الدول، الأمر الذي أسفر عن وجود احتكاكٍ لا مجال لتفاديه بين ثقافات وحضارات ظلَّت مجهولة لأزمان طويلة.

في ظل هذه الظروف الطارئة؛ اكتسى مصطلح الانفتاح أبعاداً جديدة، وحظي باهتمام الباحثين والدارسين الذين رأوا فيه حلاً مثاليًا لما يَنتج من احتكاك مباشر بين مختلف الأجناس والأديان والمذاهب والثقافات والأعراق، وبديلاً لصراع محتمل خطير، بحيث يتم تشجيع كل الأطراف على الانفتاح على بعضها بإيجاد قنوات تمكِّن الجميعَ من الاطلاع على مختلف الثروات الحضارية، ومد جسور اللقاء مع أصحابها للاستفادة من الكسب البشري مهما كان مصدره، وتحقيق خطوة مهمة نحو معرفة الآخر والاقتراب منه، والسعي

(١) رياض أدهمي. دليل الثقافة الإسلامية. ص ٦.

إلى القضاء التدريجي على مشاعر التعصب والعدوانية والانغلاق على الذات، واستبدالها بمشاعر التسامح وقبول الآخر واستيعاب اختلافه والتعايش معه على أساس احترام خصوصياته العرقية واللسانية والدينية والحضارية، والتمهيد لانفتاح شامل على الإنسانية بكل ألوانها وأطيافها واختلافاتها وثرائها وتنوعها.

وإذا كان مصطلح الانفتاح حديثاً؛ فإن معناه قديم جداً، واكَب مسيرة الإنسان منذ فجر التاريخ، فتاريخ الحضارات يؤكد أنها ما ازدهَرَت وتألقَت إلاحين امتدَّت أنظارها إلى الجديد عند الآخر المختلف، لتَحدث بينه وبين مكتسباتها الحضارية عملية إخصاب تَدفع بها إلى الأمام، وتُثري منظومتها المعرفية ونظامها الاجتماعي، فقد أدرك الإنسان مبكراً أن الانفتاح يُغني العقل، ويحرره من أفقه المحدود، فكانت حركته تعبيراً عن مَيل عميق في ذاته نحو التواصل مع الآخرين لمعرفة ما لديهم.

والانفتاح بهذه الأبعاد تداوُلٌ وتبادلٌ طوعي للثقافات، وتعميمٌ لفوائد الإبداع البشري والعبقرية الإنسانية على سائر البشر، وكلما كان الانفتاح قوياً شاملاً، كلما كانت الحضارة غنية معطاءة، لذا كان الانفتاح مرتبطاً بعمق بمفهوم الحرية، إذ أنه شكل من أشكالها ومظهر من مظاهرها، وهو أيضاً دليل حي على الوحدة الإنسانية التي تتعالى على جميع النزعات العدوانية والمشاعر العنصرية، ومحاولات الإقصاء والتهميش التي تمارسها القوى المتجبرة وتُرَوِّج فيها لسيادة جنسٍ على جنس أو أفضلية عِرقٍ على عرق أو سموّ أمة على أمة، فتاريخ الإنسانية الفكري والعلمي يعلِّمنا أن بني البشر جميعاً قد أسهموا في وضع لَبِناته، وأن ما وصلَت إليه البشرية من تقدُّمٍ اليومَ وما ستُحقّقه في مستقبل أيامها؛ مِلْك مَشاع للجميع.

غير أن ضرورته لا تعني إطلاقَه، فهناك اتفاق على وجود حدود وضوابط للانفتاح بما يتفق مع الثوابت العقائدية والثقافية والقانونية للشعوب، فالثقافة المنفتحة مقيّدة بتشريع يؤطِّر سلوكَها منْعًا وتوجيهًا وترخيصًا وإذنًا، ومحكومة بالنظم والقناعات الدينية والفكرية التي تمثل معاييرها الثابتة، لأن التلقي المفتوح بسعة غير مشروطة؛ مغامرة مجنونة تستبيح المقومات والأصول والثوابت، وتَقضي على المركزية العقائدية والفكرية للأمة، وتُحيلهما إلى حالة هُلامية تفتقر إلى الاستقرار الذي يحفظ لها قوامها الحضاري المتميز، لذلك يجب أن يخضع الانفتاح في كل أحواله لميزانٍ صارمٍ ومحاكمة دقيقة تغربل كلَّ ما يَفِد على الذات الثقافية، وتُصفّيها بمصفاة المرجعية لتتبيّن المقبولَ منها والمرفوض.

وإذا كان الانفتاح حركةً إيجابية كما أسلفنا، فإنه يتعيّن علينا أن نميّز بين الانفتاح والغزو الفكري حتى لا يحدث التباس بينهما، فكلاهما يدل على وجود علاقة بين ثقافتين أو أكثر، وهذه العلاقة التي تربط عدة ثقافات متباعدة في جذورها الدينية وانتماءاتها العرقية وواقعها الجغرافي وتراثها الاجتماعي والثقافي والجمالي، فتتبع مَنْحىً انفتاحيًا تواصليًا يتولد منه التفاعل الحضاري والمثاقفة، أو تتبع مَنْحىً تصادميًا يتولد منه الاستلاب الحضاري، لذا كان الغزو الفكري نقيض الانفتاح، لأن الانفتاح يقوم على مبدأ المثاقفة وطلب الاغتناء بثقافة الآخر وإغناء ثقافته في الوقت نفسه في جو من التكافؤ والندية، مما يولّد علاقة تفاعلٍ مُثمر تسير في اتجاهين، بينما يستهدف الغزو الثقافي احتلالَ العقل وغزوَه منَ الداخل، واستغلالَ حالات الضعف الذاتي لتخريب المناعة الذاتية للكيان المغزوّ، ومن ثَم دوام الهيمنة على الإرادة والإمكانات القومية دون حاجة إلى الأسلحة التقليدية، لأنه مزوَّد بسلاحه الداخلي الفتاك؛

أي التنميط الثقافي من خلال آلية صناعة العقل وتوجيه الثقافة، والخلطُ بين المصطلحين والعلاقتين يؤدي إلى مغالطة كبيرة.

وعلى العكس من الانفتاح الذي يُنتج دوماً ثراءً فكرياً وغِنىً حضارياً، وتقارباً بين المجموعات البشرية، فإن الغزو الفكري لا ينتج إلا التنافر والتباعد وازدياد الفجوة بين الشعوب والأمم، لأن وسائل القسر والإكراه التي يتخذها الأقوى لفرْض ثقافته الغالبة وإزاحة الثقافة المغلوبة؛ يُوَلّد إما مواجه هذا الغزو بالانغلاق الذي يقود إلى إفقار الذات وحرمانها من الاستفادة من الغِنى الذي تتوفر عليه ثقافة الآخر المعتدية، أو الانخراط في ثقافة الغازي والذوبان فيها مما يؤدي إلى إفقار الذات باقتلاعها من جذورها ومكتسباتها التاريخية وخبرات الماضي، وحرمانها من هويتها التي تعطيها التميز وتُمَكِّنُها من التفاعل الإيجابي مع غيرها.

أما الانغلاق فهو الوجه العكسي للانفتاح، وهو رد فعلٍ سلبي تواجِه به الذات تحديات الواقع عندما تعجز عن التعامل معها، فتنطوي على نفسها وتتحصن بتراثها وترفض أن تمد جسور الحوار مع غيرها، خوفاً من أن تفقد خصائصها وتضطر للتنازل عن مقوماتها تحت ضغط الوافد الأقوى منها، وهي لا تُدرك أن هذا الانغلاق سيسُدّ عليها منافذ الحياة ويخنُقها شيئاً فشيئاً حتى يغلب عليها الجمود فتنسحب من دنيا الناس، لأن الكائن الحي السوي لابد له أن ينفتح على الآخرين ويتواصل معهم لتحقيق التأثير والتأثر والأخذ والعطاء وضمان التوازن النفسي والاندماج الاجتماعي للفرد والجماعة، ولأن الثقافات تغتني بالانفتاح والاتصال والتبادل مع ثقافات أخرى، والكيانات الثقافية المنكفئة على ذاتها، تتعارض مع هذه السمة المكونة للحضارة البشرية والتنظيم الاجتماعي، والتاريخ يؤكد أن الثقافات كلّما ضاق صدرها بغيرها كلما قلّ فيها

التنوع الفكري، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى أُفولها، لأن الفكر السليم يولَد بالتزاوج بين الأفكار المتنوعة فتنشأ الثقافة المتوازنة البعيدة عن التعصب للَّون الواحد، بينما يؤدي الانغلاق إلى خسارة عالم من الفرص المفتوحة.

ج- مفهوم الأنا والآخر:

الأنا جوهر الذات، والذات هي الذات المسلِمة وكيان ثقافي وسياسي متميّز له خصائصه ومعالمه الواضحة التي تكوّنت نواتها الأولى عند ظهور الإسلام، ثم بدأَت ملامحها العامة تتشكّل بمرور الزمن وبالتفاعل المستمر مع القرآن والسنة حتى باتَت تمثل شخصية ثقافية متكاملة راسخة الجذور في أعماق النفوس، تتوارثها الأجيال كمرجعية أساس في تكوين ثقافة المجتمع وتحديد ثوابته التي تتجاوز الحدود لتسجل حضورَها القويّ في كل مكان يعتنق فيه أفرادُه الإسلام.

وقد زرعَت القيم والمبادئ الإسلامية في نفوس أتباعها؛ روحًا وحْدَوية عميقة، وربطَتهم برباط الأُخوة الذي يُحتم عليهم التكافل والتضامن والتناصر مهما تباعدت أقطارهم ونأَت ديارهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وشُدّت أواصر هذه الأخوة وعلاقات التقارب بالشعائر التعبدية التي لا تفتأ تجمَعهم على صعيد واحد، فتوقِظ فيهم باستمرارٍ شعور الوحدة؛ كصيام رمضان وموسم الحج ومواسم الأعياد، الأمر الذي تمخَّض عن طبْع كل المجتمعات الإسلامية بطابع واحد يتعالى على كل النزعات القومية والإثنية والعِرقية: «فعلى الرغم من الخصوصيات المختلفة لمجتمعات البلدان الإسلامية، فإن القانون الاجتماعي الإسلامي يتحكّم بشكل رئيسي بكل دينامية المجتمع من علاقات عائلية إلى تطبيق للطقوس الدينية في المواسم الإسلامية الخاصة بالصيام في شهر رمضان أو موسم الحج... فعلى الرغم من انعكاس

التكوين العرقي الإثني لكل مجتمع إسلامي على طبيعة ممارسة هذه الطقوس إلا أن الجوهرية التي تَصدُر عنها هذه الممارسة تبقى صادرة عن قاعدة أساسية هي القرآن والسنة»[١].

وبذلك تبقى الخصوصيات الاختلافية الناتجة عن التنوع العرقي والتكوين الإثني التاريخي، اختلافات فوقية لا تمس الجوهر الثقافي للأنا: «لأن الإسلام كرابطة حضارية يتجاوز حدود الانتماء القومي والخصوصيات المحلية والوطنية للقوميات والأعراق التعددية التي تَسود الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي، ليَخلُق منها بتعاليمه أساسًا حضاريًا مشتركًا لدى المجتمعات الإسلامية... فالشعوب الإسلامية تنظر إلى نفسها في كل بلد وكأنها منتمية إلى شعب واحد يربطه رباط ديني مشترك هو الإسلام، فالشعب الإندونيسي مثلاً يدرك تميّزه القومي والعرقي عن شعب مسلم آخر مثل الشعب المصري، لكنه يدرك أن الشعب الآخر يرتبط معه برابط الدين الإسلامي، وهذا الشعور يجعله يميّز الشعب الآخر من خلال الإسلام بأنه شعب أقرب إليه في الحضارة والتقاليد والسلوك؛ من شعب ثالث هو الشعب البرتغالي أو الشعب الدانماركي مثلاً»[٢].

ويمكن تحديد نطاق الأنا الجغرافي ضمن الأراضي التي تمتد من أدريان الغربية شرقًا في إندونيسيا، إلى الرأس الأخضر مقابل السنغال في المحيط الأطلسي غربًا، ومن تركستان الغربية وجنوب الأورال وسيبيريا شمالاً، إلى موزمبيق جنوبًا، فهذه الرقعة الجغرافية الواسعة يسودها الإسلام كدين أساس

---

(١) علاء طاهر. العالم الإسلامي في الاستراتيجيات العالمية المعاصرة. مركز الدراسات العربي الأوروبي. باريس. فرنسا. ص ١٧٥.

(٢) المرجع نفسه. ص ١٦٢.

ومرجعية رئيسة، وتتشابه مصادرها التاريخية ومواريثها الثقافية وعاداتها وتقاليدها، حتى إنها تمثل كتلة حضارية واحدة يطلَق عليها مصطلح العالم الإسلامي أو الشرق.

ورغم ما أصابها من انقسامات وما توالى عليها من المحن والنكبات، جرَّاء الضعف العام الذي عصف بالأمة والاستعمار الغربي الذي مزّق أوصالها وشنّ عليها حرباً ثقافية ضروساً خلخلَت مقوماتها وشككت في أصالتها؛ إلا أنها لا تزال كياناً واحداً، يظهر هذا في المناسبات التي كان الإسلام أو المسلمون موضع طعنٍ أو إساءة، ويتبين للجميع أن هناك تاريخاً مشتركاً عريقاً يربط هذه الشعوب التي أرغمتها الظروف على التباعد، فيجمعها لتعيد لعلاقاتها الممزقة لُحمة الوحدة.

أما الآخَر فهو كل من يقع خارج نطاق هذه الكتلة الثقافية ذات الخصائص المتميزة، وينقسم لقسمين كبيرين: الحضارة اليونانية، والحضارات الشرقية، إضافة إلى الحضارة الفارسية والهندية والصينية واليونانية، فهذه الحضارات قبل الإسلام؛ تختلف عن الأنا في العقائد والتصورات والقيم، وقد ضربَت بسهم وافر في مضمار الحضارة الإنسانية والرقيّ، وحازَت علوماً جمة واحتكمَت على تراث غني في مختلف مجالات المعرفة.

فالحضارة الفارسية تعود جذورها إلى القرن السادس قبل الميلاد؛ وقد تجمعَت لديها روافد الحضارة الكِلدانية والآشورية والبابلية، واستفادت كثيراً من احتكاكها بالهند واليونان، فجمعَت بين طياتها تراثاً غنياً في التنجيم والهندسة والجغرافيا والطب والتاريخ والآداب والأساطير والقصص[1].

(١) لبيب عبد الساتر. الحضارات، ص ٧٠ - ٧٢.

والحضارة الهندية من أعرق الحضارات الإنسانية وأكثرها ثراءً وتنوعـًا، تمتد ثلاثين قرنـًا قبل الميلاد[١]، وقد ضربَت بسهمٍ وافر في علوم الرياضيات والطب والفلك، ولديها تراث أدبي ضخم.

والحضارة اليونانية اشتهرَت بالحسابات والتطبيقات الهندسية والفَلك والطب والفلسفة والشعر والمسرح والنحت والعمارة الرفيعة والخطابة وكتابة التاريخ، وانتشرَت علومها في الشرق بفعل غزوات الإسكندر الأكبر، وفي الغرب بفعل الإمبراطورية الرومانية التي اتخذَت من تراثها مرجعية لها في الدين والحياة.

والحضارة الصينية أسهمَت برصيدٍ هائل في العلوم التطبيقية: «وفي غضون القرنين الأول والثاني الميلاديين، بلغَت الصين قمةً من قمم التقدم العلمي والثقافي عبر التاريخ، لذلك يحق اعتبار الصين غاية وذروة الحضارات الشرقية القديمة»[٢].

فكل هؤلاء يدخلون تحت إطار الآخر المختلف الذي تعاملَت معه الأنا وانفتحت عليه، وهذه الحضارات بلغَت شأواً بعيداً في الرقيّ المعرفي والمادي، وأثّرت تأثيراً عميقـًا في تاريخ العالم آنذاك، واحتكّت احتكاكـًا مباشراً بالدولة الإسلامية لوقوع معظم ممتلكاتها تحت السلطة الإسلامية الجديدة.

---

(١) المرجع نفسه. ص ٣٠٥.

(٢) يمنى طريف الخولي. فلسفة العلم في القرن العشرين. ص ٣٦.

ثانياً: تجليات انفتاح الثقافة الإسلامية على الآخر

الانفتاح سِمة بارزة من سمات الثقافة الإسلامية التي أرسى أركانَها القرآن الكريم، وواكبَت انتشار الإسلام في أرجاء الأرض، وامتدادِ فروعه في أطراف العالم، واستقرارِ عقيدته في النفوس استقراراً لا يَعرف التحوّل، فقد بنى الإسلامُ تصوراتِ أتباعه على أساس أن التعدد والتنوع قاعدة كونية شاملة وناموس ثابت، وأن هذا الاختلاف بين الناس ليس مَدعاةً للصراع والتصادم، بل هو سبيل للتعارف والتعاون الذي عدَّه اللهُ غايةً وُجودية فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذا التعاون يقتضي بالضرورة الاعترافَ بالآخر المختلف، والتفاعلَ معه بحيث تكون علاقة المسلم به علاقةَ أداءٍ مشترك لإنفاذ إرادة الله في عمارة الأرض، والتأسيس لعلاقات إنسانية سوية تقوم على التعايش وتبادل المصالح والمنافع، كما منح القرآنُ الكريم للمسلمين مفاتيح أبواب العلم، ودلهم على مجاله الواسع الذي يتميز بالموسوعية والابتكار وعدم الركون للتقليد، والحث على النظر المستمر في الكون والسياحة في الأرض ودراسة أحوال الأمم السالفة لأخذ العبر: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩]، وحفَز العقل على التفكر والتدبر والتأمل وتقليب الأمور على أوجهها ليتبيّن الحق، والدعوة لإقامة الحياة على أساس التفكير السليم.

وكانت السنة النبوية الشريفة نموذجـًا يُحتذى به في الانفتاح على الآخر، حين كتب رسول الله ﷺ بينه وبين اليهود بالمدينة؛ وثيقة سلام تُنبئ عن استعداده للتعايش معهم، وتبادل المصالح والمنافع، وأيضـًا حين أخَذ بمشورة

سلمان الفارسي في حفر الخندق حول المدينة، وهو أسلوب عسكري فارسي لصد جيوش المشركين الزاحفة عليها، وفي اتخاذه خاتماً يمهر به عهوده ومواثيقه الدولية ورسائله إلى الملوك والأمراء على عادة الدول والإمبراطوريات آنذاك، وفي ذلك كله دروسٌ عملية للأجيال أن تكون المدينة النبوية عاصمة الإسلام الأولى حافلةً بهذا التنوع في الديانات، وأن يكون حاكمُها منفتحاً على الكسب البشري النافع، مقبلاً على الحِكمة أينما كانت.

فالانفتاح الثقافي المتميّز الذي اتخذه المسلمون الأوائل إزاء الآخر؛ كان نابعاً من تشبّعهم بالإرشاد القرآني والتوجيه النبوي الذي مثّل العاملَ المهم والدافع الأساس الذي وقف وراء انفتاحهم على ثقافات الشعوب التي دخلَت تحت سلطة الإمبراطورية الإسلامية، حيث تضمَّن القرآن الكريم توجيهاتٍ واضحةً لأتباعه تحُثّهم على ضرورة إيجاد سُبل التواصل بينهم وبين الحضارات التي سبقَتهم للانتفاع بما عندها، وكان لهم في مرجعيتهم المقدّسة دليل يوجههم نحو أقوم السبل للتعامل مع هذا التنوع العرقي والثقافي، حيث قامَت العلاقات الإنسانية بين الطرفين على أساس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفيه إحالة على وحدة العنصر البشري، واستبعاد لكل أنواع التمييز العنصري، وقامت العلاقات الفكرية على أساس التعاليم الإسلامية التي تمجّد العلم وتحترم العقل، ولا تعادي الكسب البشري مهما كان مصدره، واستناداً إلى هذه المبادئ الحضارية الراقية فتحَت الثقافة الإسلامية مع الحضارات التي احتكّت بها حواراً واسعاً وغنياً وعميقاً.

وقد استجاب المسلمون لهذه القيم وتفاعلوا معها إيجابياً، فانفتحوا انفتاحاً كبيراً على أمم كثيرة وعرفوا قوميات متعددة واختلطوا بأجناس شتى،

وأتاحَت لهم الفتوحات العسكرية وامتداد الدعوة الإسلامية على يد العلماء والتجار مجالاً واسعاً لمعايشة التنوع العرقي والثقافي الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الحضارية للمجتمع الإسلامي: وقد «فَهِمَ العرب لأول عهدهم بالإسلام وبإرشاد القرآن؛ أن هناك أمماً قد خلَت عمَّرت الأرض ومكَّنَ الله لها، وكانت أكثرَ أموالاً وأعزَّ نفراً وأثبتَ آثاراً، وامتثلوا أمر القرآن بالسير في الأرض والنظر في آثار تلك الأمم والاعتبار بمصائرها وعواقبها...فكان هذا الإرشاد القرآني المتكرر حفزاً إلى التنقيب عن آثار المدنيات القديمة ودراستها والاطلاع على الصالح النافع منها والأخذ به، وكان من آثار هذا التنبيه القرآني: أن تفتَّحت أذهان المسلمين إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها، وكان من فضْل القرآن على العالم أنه أبقى بهذا الإرشاد على علومٍ كادت تندرس، وعلى آثارِ مدنياتٍ كادت تنطمس»[(١)].

والتجارب التاريخية الكثيرة والمتنوعة تُثبت من خلال التراث الثقافي أن المسلمين قد تجاوبوا بقوة مع هذه التعليمات، فكانوا يتقبّلون الآخر ويندمجون معه، ويسعون في معرفته والاطلاع على تركيب ثقافته وتميّز معتقداته وعاداته، ويُدرجون ذلك ضِمن النسق الثقافي الذي قامَت عليه تصوراتُهم للعالم، والتي تَعتبر اختلاف الأجناس واللغات والأديان ظاهرة طبيعية في الكون: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]، وبذلك انتفَت من الثقافة الإسلامية بذور العصبية العنصرية، ومصداقه ما زخرَت به كتب التراث من مادة غنية تعترف بالثقافات الإنسانية التي سبقت

(١) محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، ص ٢٦٠.

الإسلام وعاصرَته، وتنسب لكل أمة وجنسٍ ما اشتهر به من الفضائل، وما عُرِفَ عنه من سبقٍ في شتى المجالات، وتنبئ - من ناحية أخرى - عن طموح صادق لمعرفة أخلاق الأمم وما يَغلب عليها من الطباع؛ كتعبير قويّ عن مرونتها وحيويتها واستيعابها للآخر بوصفه مختلفاً ومتنوعاً ومثيراً للفضول، وليس بوصفه عدواً أو وضيعاً أو محل احتقار.

مِصداق ذلك عند أبي حيان التوحيدي، الذي عبَّر عن هذه الفكرة أصدق تعبير فقال: «لكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحَلّها وعَقدها كمال وتقصير، وهذا يَقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص؛ مُفَاضَةٌ على جميع الخَلق، مفضوضة بين كُلِّهِم، فللفُرس: السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللروم: العلم والحكمة، وللهند: الفكر والرَّوِية والخفة والسحر والأناة، وللتُّرْك: الشجاعة والإقدام، وللزِّنج: الصبر والكَدُّ والفرح، وللعرب: النجدة والقِرى والوفاء والبلاء والجود والذِّمام والخطابة والبيان، ثم إن هذه الفضائل المذكورة في هذه الأمم المشهورة؛ ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ثم في جملتها مَنْ هُوَ عَارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعني أنه لا يخلو الفُرس من جاهلٍ بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخلٍ في الرعاع والهَمَج، وكذلك العرب لا تخلو من جبانٍ جاهلٍ طياش بخيل عَيِيّ، وكذلك الهند والروم وغيرهم»[(١)].

وبذلك استوعبت الثقافة الإسلامية كَميات هائلة من التراث الإنساني الذي وجدَته لدى مختلف الأعراق والأجناس التي انفتحَت عليها وتثاقفَت معها

(١) أبو حيان التوحيدي. كتاب الإمتاع والمؤانسة. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. ج ١. ص ٧٣، ٧٤.

بعمق، وتعاملَت مع الفكر العالمي من موقع الحوار البَنّاء والتحليل والنقد والتفهم، وليس من موقع الرفض والازدراء، وأثناء هذا الانفتاح الواسع أثَّر المسلمون في غيرهم وتأثروا بغيرهم عبر تجربة تاريخية خَصبة قَلَّ أن نجد لها مثيلاً في التاريخ الإنساني، فمن جانب تأثير الثقافة الإسلامية في غيرها؛ نجد أن أبرز ما حمَله المسلمون لأصحاب الثقافات الأخرى: الإسلام واللغة العربية اللذَين كان لهما أبعد الأثر في إحداث تفاعلٍ ثقافي تاريخي لم تشهد الإنسانية له مثيلاً.

أما الإسلام بعقائده وتشريعاته وأخلاقه وقيمه؛ فقد حمَل للشعوب والأمم التي انضوت تحت لوائه منظومةً متكاملة من المفاهيم والتصورات والقيم الإلهية الجديدة التي صاغَتهم صياغةً روحية راقية، وبنَت عقائدَهم على صخرة التوحيد الذي حرّرهم من أَسْر الخرافات والأساطير والعقائد الضالة التي كانت تُزري بقيمة الإنسان وتستعبد طاقته، وتَشُلّ قدراته الروحية وتلوّثها بالمعتقدات الساذجة، وشكّلت عقولَهم تشكيلاً فريداً حين استنفرَت ملَكاتِهم الفكريةَ، وفتحَت لهم أبواب التفكير والتأمل والتساؤل والبحث على مصراعيه، فتحولت وِجْهتُهم، وتغيّرت منظومتهم الدينية والفكرية والمعرفية، وانتقلت من المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى المعرفة العميقة الواضحة ذات السلطان على الروح والنفس والجوارح، وذات التأثير القوي في الأخلاق والاجتماع[١].

وتجسَّد هذا التأثير بقوة في إقبال هذه الأمم والشعوب على الإسلام واهتمامها الكبير بالقرآن الكريم، وحِرصها الشديد على حفظه وفهمه وتدبره، وسعيها الحثيث إلى الإحاطة بجميع علومه وأوجُه إعجازه في اللفظ والمعنى

(١) أبو الحسن علي الحسني الندوي. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. ص ١٢٩.

والتشريع، ودفَعهم ذلك إلى استجماع الأدوات الضرورية التي تمَكّنهم من دراسته والغوص في أعماقه، فكان ذلك منطلَق حركةٍ علمية نشيطة وخَصبة تمخَّضت عن تراث إسلامي غني في مجال علوم القرآن.

وكانت إسهاماتهم في هذا المجال دليلاً حيًا على التأثير الحي العميق الذي أحدَثه في نفوسهم، حيث اقتحموا أكثر مجالاته صعوبةً وهو تفسير القرآن الكريم الذي كان يتطلب إلماماً واسعاً باللغة العربية واشتقاقاتها ومعانيها وتراكيبها ومذاهب العرب في استعمالها، وهو جهد جبار لمن لم يكن من أهلها، غير أن ذلك لم يقف حاجزاً دونهم، فتألق في سماء التفسير والقراءات والدراسات الإعجازية نخبةُ منهم، أحرزوا قصب السبق في إتقان العربية وتذوُّقها، ومعرفة خصائصها وخباياها، وجمعوا إلى ذلك ما أنعم اللهُ به عليهم من الذكاء والعبقرية، فأبدعوا ثروةً علمية زاخرة لا تزال إلى اليوم مصدراً مهماً لكل طالب علم، منهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠ هـ) صاحب: «جامع البيان في تفسير القرآن»، وأبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت٣٧٥ هـ) صاحب: تفسير بحر العلوم، وأبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت٤٢٧هـ) صاحب: «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»، وأبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الملقَّب بجار الله الزمخشري (ت٥٣٨هـ) صاحب تفسير: «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) صاحب تفسير: الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان، وغيرهم كثير.

ولقي الحديث الشريف من الاهتمام والعناية ما لقيه القرآن الكريم، حيث احتفى به المسلمون في البلدان المفتوحة أيما احتفاء، وبذلوا في سبيل جمْعه

وتصنيفه وتنقيته من الموضوع والضعيف جهوداً محمودة خلَّدتهم على مر العصور، وما زال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يحمَدون لهم هذا الجهاد العلمي العظيم، ويُقدّرون لهم ما أسْدَوه من خِدمات جليلة لحديث رسول الله ﷺ، والذي يُعد المصدرَ الثاني للتشريع الإسلامي بعد كتاب الله، ورأسهم: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦ هـ) صاحب كتاب: «الجامع الصحيح المسنَد من حديث رسول الله وسننه وأيامه»، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) صاحب: «الجامع الصحيح».

أما اللغة العربية باعتبارها وعاءً للفكر والثقافة فقد واكبَتِ القرآنَ الكريم أثناء انتشاره وتغلغله في أوساط الشعوب المفتوحة، ولقيَت من الاهتمام والتقدير ما لقيه الذكر الحكيم، ووجدَت لها مَيدانًا فسيحًا عند هذه الشعوب والأمم، فانتشرت وتجذَّرت، وكان أهمَّ عاملٍ مكَّن لها: اتخاذها لغة للتعليم في المساجد التي كانت النواة الأولى للمدارس والجامعات الإسلامية، مما أعطاها دفعة قوية وأكسبها نفوذاً ثقافيًا واسعًا استطاعت أن تقود به حركة علمية رائدة حينما اندمجَت جموع هذه الشعوب في حركة التعليم، فتألّقت مواهب المتميزين منهم وتفجرت قرائحهم، فاتخذوا من العربية وِعاءً يصبون فيه خلاصة إبداعاتهم، حيث أقبلوا «على التعرُّب إقبالاً منقطع النظير، وأكَبّوا على تعلُّم العربية إلى أن أتقنوها واتخذوها سريعًا أداةً للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم، بحيث لا نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكُتاب والشعراء منهم، فهم يُقبلون على دراسة الشريعة الإسلامية، ويتألق فيها نَجم أبي حنيفة وتلاميذه، وهم يُقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيبويه، وهم يُقبلون على صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع، وهم يُقبلون على الشعر بحيث يصبح

أعلامُه النابهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشَّار وأبي نواس»[١].

وبدأَت اللغات المحلية تتراجع أمام اللغة العربية التي اكتسحَت جميع الميادين، وأقبلَت عليها القلوب والعقول راضيةً طائعة، ووجدَت من المسلمين الأعاجم درعًا قويةً صان لها نقاءَها وأصالتَها في مواجهة أمواج اللحن التي بدأت تفشو على ألسنة الناس، واختار كبار العلماء والعباقرة من الذين نبغوا في ظل الإسلام من شتى الأجناس التأليفَ بالعربية على الرغم من إتقانهم للُغتهم الأصلية، تعبيراً عن رغبتهم الصادقة في إثراء الثقافة الإسلامية والمشاركة في نموها وتطورها، وإظهاراً للولاء التام للإسلام الذي يعود إليه الفضل فيما شهده العالم من نهضة علمية مباركة:«استخدَم الفُرسُ وأهلُ الشام والأقباطُ والبربرُ اللغةَ العربية، ووضعوا مواهبهم وعلومهم في سخاء في خدمة العروبة، وتلاشت مُنذُئِذٍ القوميات، وأصبح الإنسانُ يعتبر نفسه عربيًا، سواء أكان فارسيًا أم شاميًا أم مصريًا، وكذلك أصبحَت كلمة (عربي) تعني كلَّ مسلم يكتب العربية ويتكلّمها، وكان ذلك هو أهم حدث في تاريخ الحضارة الإسلامية»[٢].

ومن أبرز تجليات هذا الانفتاح استعارة الحرف العربي لكتابة مختلف اللغات المحلية به، كاللغة الفارسية واللغة الأردية واللغة التركية[٣]، على الرغم من أنها تنتمي جميعًا إلى فصيلة اللغات الآرِية الهندية، ولا تلتقي مع اللغة العربية ذات الأصل السامي في أصل ولا فرع، إلا أن الإسلام الذي ربط

(١) شوقي ضيف. العصر العباسي الأول. سلسلة تاريخ الأدب العربي. رقم ٣، ص ٩١.

(٢) هل، ي. الحضارة العربية. ص ٧٨.

(٣) وظل الحرف العربي مستخدَمًا عند الأتراك، وقد برعوا في فن الخط العربي براعة عظيمة، إلى أن قامت الجمهورية التركية الحديثة على يد كمال أتاتورك ، فاستبدل الحرفَ العربي بالحرف اللاتيني.

الشعوبَ الإسلامية برباطٍ وثيقٍ جعل بين هذه اللغات وبين العربية من الصِّلات ما يَندر أن يقوم مثلُه في التاريخ[١].

وقد تكررت هذه الظاهرة الفريدة في أعماق إفريقيا؛ حيث انتشر الإسلام على أيدي الدعاة والتجار والعلماء، ووجدَت اللغة العربية طريقها إلى ألسنة الأفارقة وعقولهم من خلال حركة التعليم النشِطة، وتسللت كثيرٌ من مفرداتها إلى لغاتهم المحلية، وبخاصة في أمور الدين كالصلاة والزكاة والحج والصوم والإيمان[٢]، وكذا الأمور الاجتماعية نظراً للتأثير القويّ الذي مارسَته الأخلاق الإسلامية والمفاهيم السلوكية على المسلم الإفريقي، وكان من نتائج ذلك أن تقاربَت لغات القبائل الإفريقية واتخذَت من الحرف العربي وسيلة للتعبير، يقول المؤرخ بازل ديفيدسون Basil Davidson: «إن القراءة والكتابة عطيّة من عطايا العرب لإفريقيا، أحدثَت أثراً كان أكبر الأثر»[٣]، وتكتظ دُور الوثائق والمخطوطات في إفريقيا وعواصم البلدان الإفريقية بالمخطوطات المكتوبة بالحرف العربي، والتي يرجع تاريخها إلى عدة قرون مضت، وقد أحصى الباحثون قرابة ثلاثين لغة إفريقية كانت تُكتَب بالحرف العربي قبل دخول الاستعمار الأوروبي[٤] الذي حارب الثقافة الإسلامية بشراسة؛ وجفف منابعها بقوة الحديد والنار.

---

(١) طه ندا. الأدب المقارن. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. ص ٣٥.

(٢) باتيبو، هـ، م. «إسهام اللغة العربية في إنماء اللغة السواحلية وتطويرها». مجلة رسالة الجهاد. س٩، ع ٨٨، مايو ١٩٩٠م. ص ٥١.

(٣) جمال محمد أحمد. وجدان إفريقيا، ص ٣٩.

(٤) يوسف الخليفة أبو بكر. «الحرف العربي واللغات الإفريقية». رسالة الجهاد. ع ٩٤، ١٩٩٠م، ص ٥١.

وعلى عكس الثقافة الغربية التي تعمَّدَت قتْلَ الحضارات واللغات وتغييبَ معالمها واستئصال جذورها، فإن الثقافة الإسلامية قد جاورَت كل اللغات التي احتكّت بها ولم تمارس ضدها أي سلوك عدواني؛ لإيمان المسلمين بأن تعدد اللغات آية من آيات الله في كونه، يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مُشيداً بتسامح اللغة العربية مع اللغة البربرية رغم قوة انتشارها بين أهلها: «ومَن شهِد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربية بحُسن الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دينَ جبريةٍ وتسلّط؛ لَمَحا البربرية في بضع قرن، فإنْ تسامَح ففي قرن»[1].

ومن جانب آخر تأثرت الثقافة الإسلامية التي تكوَّنت نواتُها في الجزيرة العربية حول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بما وجدَت عند الشعوب والأمم المفتوحة من تراث ثقافي غني تتابعَت المدنيات السابقة على تنميته وبَلورته، وبخاصة أن أغلب الممالك التي أظلّتها الدولةُ الإسلامية كانت مراكزَ حضاريةً ذاتَ إسهاماتٍ فذة في مختلف الحضارات الإنسانية المتعاقبة، فكان لهذا الانفتاح أثره العميق في الحضارة الإسلامية، يقول كراوثر: «كان من الطبيعي بعد أن اطمأنوا إلى قوتهم العسكرية ومعتقداتهم الإيمانية؛ أن يتّجهوا لتشييد المدن الرائعة ودراسة ثقافة الحضارات التي دانت لهم، وكان العرب المسلمون أمة جديدة بلا تراث علمي سابق، فقرأوا التراث الفكري للقدماء بعقول متفتحة وبلا خلفيات تَعوقهم، ولذلك وقفَت الثقافات الإغريقية واللاتينية والهندية والصينية جميعاً بالنسبة لهم على قدم المساواة، وكان من نتائج هذه العقلية المتعطشة للمعرفة عند المسلمين أنهم أصبحوا المؤسسين الحقيقيين لمفهوم

(١) محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر، ص ٢٢٢.

العالمية في المعرفة، أو وحدة المعرفة الإنسانية»[١]، وهذه الشهادة تؤكد لنا أن الثقافة الإسلامية كانت متسامحة منفتحة، لا مكان فيها للعنصرية الإقصائية، ولا للاستعلاء العرقي الذي يجعلها تحتقر مَن هم دونها في القوة والغلَبة.

وأما الثقافة الفارسية فقد انفتحت الثقافة الإسلامية عليها وتفاعلت معها تفاعلاً فريداً، اتسم بالحيوية والعمق والتلاحم القويّ بين الطرفين في ظلال الإسلام، حيث أثّرت الثقافة الفارسية الشعبية تأثيراً بعيداً في المحيط الإسلامي، وبخاصة في المأكل والمشرب والملبس وبناء القصور، ونظام الخدم والحشم، وهي المظاهر الثقافية التي برز فيها الفُرس، كما انفتحَت أمام المسلمين أبواب التراث الفارسي في الطب والفَلك والرياضيات والفلسفة والآداب، وكان الفرس - بعد أن دخلوا في دين الله - خيرَ عون للمسلمين على نقْل تراثهم إلى العربية، والذي كان عاملاً مهماً من عوامل ازدهار الثقافة الإسلامية وإغنائها، سواء في الأشكال والأساليب؛ أَم في المحتوى العلمي والفكري والأدبي والفني عموماً.

وأما الثقافة الهندية بكل اتساعها وغناها وعراقتها، فقد أمدَّت الثقافة الإسلامية بزاد وفيرٍ في الرياضيات الهندية التي كانت سبباً لنشأة الرياضيات الإسلامية بعد أن تنامت وتطورت عن طريق الاتصال المباشر بالهند على يدي العالمين الكبيرين الخوارزمي والبيروني، وكلاهما زار الهند وكان يتقن اللغة السنسكريتية إتقاناً جيداً[٢]، فقد اقتبس المسلمون من الهنود النظام العَشري،

(١) كراوثر، ج. قصة العلم. ترجمة: يُمنى الخولي وبدوي عبد الفتاح. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة، ص ٥٧.

(٢) يُمنى طريف الخولي. فلسفة العلم في القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ديسمبر ٢٠٠٠م. ص ٤٢.

وأخذوا عنهم فكرة الصفر التي سهلت لهم اكتشاف الكسر العشري الذي كان- فيما بعد -سبباً في اختراع الحاسبات الإلكترونية في العصر الحديث[١]، ثم طوروا هذه المعطيات وأبدعوا فيها.

وأما علم الفلك فقد انفتحت الثقافة الإسلامية عليه؛ حيث ضرب فيه الهنود بسهم وافر لارتباطه الوثيق عندهم بالتنجيم، فنقَله المسلمون وعكفوا عليه بالتمحيص والتصحيح ليناسب العقيدة الإسلامية المبنية على التوحيد، وبذلك: «أصبح علم الفلك- بعد ضبْطه وتكييفه وفق الرؤية الإسلامية- علماً استقرائياً عملياً يعتمد على الملاحظة الحسية والمقاييس العلمية، مبنياً على الأرصاد والحسابات الفلكية المستندة على الرياضيات البحتة والتطبيقية»[٢]، كما انفتحت على الطب الهندي من خلال احتكاك المسلمين المباشر بالأطباء الهنود الذين توافدوا على الحواضر الإسلامية، وكانوا على درجة عالية من المعرفة بأنواع الأمراض وطرق علاجها، ومن خلال المترجمين الذين عكفوا على نقل كتب الهند الطبية؛ وكتب العقاقير والنباتات والأدوية التي برع الهنود في استعمالها على نطاق واسع في العلاج[٣].

وأما الثقافة اليونانية التي اشتهرت بأطبائها وفلكييها ومهندسيها ومؤرخيها وأدبائها وفلاسفتها، فقد انفتح عليها المسلمون واحتكوا بإنجازاتها؛ من خلال مدارس الإسكندرية وأنطاكية، ونصيبين، وحرَّان، وجُند يسابور التي تخصصت في تدريس الثقافة اليونانية منذ أن غزا الإسكندر الأكبر بلاد الشرق ونشَر فيها

(١) علي عبد الله الدفاع. العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، ص ١١١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤٧.
(٣) رمضان الصباغ. العلم عند العرب وأثره في الحضارة الأوروبية. ص ١٩ - ٢٠.

علوم اليونان وحِكمتهم، وأبرزُ ميدانٍ ظهر فيه التأثير اليوناني في الثقافة الإسلامية ميدان الفلسفة التي أقبل عليها قِطاع كبير من المسلمين يطالعونها ويقارنون بينها وبين مقولات العقيدة الإسلامية، حيث أدركوا أنها وليدة العقل الإنساني الذي وُلد في بيئة مُلحدة لم تَعرف نعمة الوحي[١].

وقد تعامل المسلمون مع الفلسفة اليونانية بطريقتين: فمنهم من عكف على شرْحها وحاول التوفيق بينها وبين الشريعة كالفارابي وابن سينا وابن رشد، ومنهم مَن انتقدها انتقاداً علمياً، وبيَّنَ المزالق التي وقع فيها فلاسفة اليونان لافتقارهم للمعرفة الدينية واعتمادهم كليَّةً على العقل البشري القاصر، كأبي الحسن الأشعري والباقلاني والجويني: «ثم انقضّ عليها أبو حامد الغزالي انقضاضه الأكبرَ فماتت موتتَها الأخيرة»[٢]، ولم تقم لها بعد ذلك قائمة في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا، لأن الفلسفة اليونانية لا تعدو أن تكون في جوهرها جزءاً من الخصوصية الحضارية لليونان، لم تتأقلم مع تصورات العقيدة الإسلامية، فتنازعا الوجود زمناً ثم غادرت.

وأما الثقافة الصينية فقد انفتح عليها المسلمون عن طريق الرحلات والتجارة، مما وطَّد عُرى التعاون وتبادُل الخبرات بين الجانبين في عدة مجالات، وقد أفضى ذلك إلى استقرار أعداد كبيرة من المسلمين في موانئ الصين بشكل خاص، وأسفر عن انتشار الإسلام بين الآلاف من سكانه انتشاراً سِلمياً، وصاروا بمرور الأيام عشرات الملايين، ومنذ القرن الثالث الهجري: «وضَع التجار العرب والمسلمون أيديهم على أغلب تجارة الصين؛ حتى

---

(١) علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ص ١٠٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ١١٨.

أصبحَت السفن الصينية ذاتها يقودها ربابنة من العرب»[١]، وقد سهَّل هذا الاتصال الاقتصادي المكثف للثقافة الإسلامية سُبل الانفتاح على المنجزات الحضارية الصينية والتفاعل معها، وأهمُّ ما اقتبس المسلمون منها: صناعة الورق الذي وجد اهتماماً كبيراً من المسلمين الذين كانوا في حاجة ماسة إليه لاستيعاب الحركة العلمية النشيطة السارية في أوصال الإمبراطورية الإسلامية، وعلى أيديهم تطورَت صناعته حتى بلغ درجة من الرقيّ والإتقان، ومن المغرب الإسلامي انتقلَت صناعته إلى أوروبا، وكان خيرَ عون لها في نهضتها الحديثة[٢].

ثالثاً: شروط وضوابط انفتاح الثقافة الإسلامية على الآخر

الانفتاح على الآخر حركة إيجابية وقانون طبيعي يحكُم حياة الشعوب والأمم، ويفرِض عليها أن تتفاعل فيما بينها لتعميق التجربة الإنسانية وإخصابها، ومدِّها بالروافد البَنّاءة التي تُنعشها وتغذّيها، لكنه يخضع لجملة من الشروط والضوابط التي تؤطِّره وترسم حدودَه حتى لا يتحول إلى عامل هدمٍ للكيان الثقافي والذات الحضارية؛ بما يحمل إليها من معارفَ قد تَضربُ ثوابتها العقائدية وقناعاتها الفكرية، وتتسبّب في تحلّل كيانها التاريخي، وقد اكتسبَت الثقافة الإسلامية خاصيتي الحيوية والمرونة اللتين تَضْمنان لها القدرة على

(١) سمير عطا. «شنج هو رحالة مسلم من الصين». مجلة الفيصل. الرياض. ع ٧٢. ١٩٨٣. ص٧٦.

(٢) بركات محمد مراد. الورق والوراقة والوراقون في الثقافة العربية. /http://www.alukah.net/library/0/48585

الاستجابة لتطور الحياة من مرجعيتها المقدسة (القرآن والسنة) التي حددت لها ضوابط تقف عندها لتحافظ على جوهر ذاتها، وتتمكن من امتصاص المستجدات الثقافية بكل ما تحمله من منافع، ونبَذ ما يمكن أن يسيء إليها أو يُخرجها عن أهداف وجود الإنسان في الأرض، وبالتزامها بهذه الضوابط؛ تَكَوَّن لديها وعْي حضاري أمدّها بحاسة نقدية دقيقة تُمحّص وتصحّح وتصفّي بها الروافد الثقافية القادمة إليها، فلا تتبنّى إلا النافع المفيد؛ ولا تَنفتح إلا على ما يزيدها حياة وقوة، ومن بين هذه الضوابط والشروط ما يلي:

١ - الحفاظ على الخصوصيات الحضارية باحترام المعادلة الاجتماعية للأمة

من البدهيات التي يتفق عليها معظم الباحثين في المسألة الثقافية؛ أن لكل أمة معادلتها الاجتماعية الخاصة بها، والتي تستمد منها أسباب الوجود ومعالم التميّز، وتتكوَّن هذه المعادلة من العوامل الدينية والثقافية والتاريخية التي تتبلور عبر الزمن لتصوغ في النهاية الخصائص النفسية لهذه الأمة، وتحدد مفاهيمها وتنسج تقاليدها الاجتماعية، وتضبط قيمها ومبادئها. والأمم ذات الماضي التاريخي العريق؛ لها سمات نفسية ثابتة ثبوت سِماتها الخَلْقية، وتُكَوِّنُ جزءًا طبيعيا منها لا يمكن فصلُه أو محْوُه أو تجاهلُه، وهذه الطبائع هي الآلية المحركة للمجتمع: «إن هذه الأشياء الروحية التي تُسَمَّى الدين والعقيدة والضمير؛ هي أشياء طبيعية، بل هي أجزاء من الوجود الإنساني، فَمُقَاوِمُها كمُصَادِم الجبل الأشمّ، لا يبوء إلا بالزعزعة والضعضعة»[١].

لذا كان للمعادلة الاجتماعية التي تميّز كل أمة عن غيرها؛ أهميتها البالغة في ضبط عملية الانفتاح، نظراً للصلة الوثيقة التي تربط هذه المجتمعات بميراثها

(١) محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر. ص ٢٣٨.

الثقافي وتأثيره العميق في توجيه أفكارها وأعمالها، فالانفتاح إذا لم يكن منبثقاً من طبيعة الأمة منسجماً مع خصائصها الثقافية، مستوحىً من حاجاتها الحيوية؛ سيتحول إلى آفة تنخَر كيانها وتهدد وجودها[١].

وعندما تحتك الأمم ببعضها، وتتطلّع إلى ما عند غيرها من العلوم والمعارف، وتستشرف للدخول مع (الآخر) في عملية تواصل وتفاعل، فإنه يتعين عليها أن تَبني انفتاحها على أساس مراعاة معادلتها الاجتماعية وموروثها الثقافي اللذَين يصنعان خصوصيتها الحضارية، فمن الأمور الطبيعية التي تجري في الحياة: «أن الثقافة الغالبة والسائدة، والتي تقدّم إجابات عن أسئلة وإشكاليات معاصرة، وتستجيب فعلياً لتحديات الراهن، تدفع أصحاب الثقافات الأخرى إلى الاقتباس منها، والاستفادة من إبداعاتها ومنجزاتها المعرفية والفكرية»[٢]، بشرط أن يتم ذلك من خلال احترام الخصوصيات الثقافية.

والأمة الإسلامية تستمد خصوصيتها من الإسلام بمصدريه (الكتاب والسنة)، فهو الذي صاغ كيانها الثقافي وشخصيتها الحضارية، وكيّفها وفق تعاليمه وأحكامه، وألقى بظلاله على جميع أبعادها الروحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو الذي زوّد المسلمين بالحس النقدي الذي أتاح لهم أن يَفصلوا فصلاً تاماً بين ما هو مشترك إنساني يزيد في قوتهم ويدفع مسيرتهم الحضارية إلى الأمام، وبين ما هو خصوصية ثقافية تصطدم

(١) راجع كتاب: الطيب برغوث. الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية.

(٢) محمد محفوظ. «الثقافة والآخر الثقافي». مجلة التجديد العربي. الأربعاء ١ من أغسطس ٢٠٠٧.

بعقائدهم وتتناقض مع مقوماتها، وفي ضوئه عملوا على تصحيح مسيرة العلوم بتنقيتها من آثار الشرك والكفر والوثنيات والمعتقدات الفاسدة والأفكار الضالة والخرافات التي كانت تُكبّل العقل وتُفسده، والاحتفاظ بزبدة المعارف التي ألبسوها ثوب المنهج العلمي الصارم الذي استوحوه من القرآن الكريم الذي يركّز بشكلٍ لافتٍ على الأسباب والمقدمات، ويربطها ربطًا وثيقًا بالنتائج.

وبهذا الحس النقدي الدقيق الذي يمحّص ويصحح، استطاع العقل الإسلامي أن يهضم الثقافات الموجودة من يونانية وفارسية وهندية وصينية وغيرها، وأن يحفظها من الضياع ثم يستفيد منها لولوج عالم الإبداع:«فأخذ ورفض، وانتقى ومحَّص واختبر، وعزل واستبعد وفصل، وعرف- وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة- ما الذي ينسجم معه ويزيده دمًا وحياة، وما الذي يحمل جراثيم المرض والهُزال والدم الأزرق الفاسد، فكان يعرف جيداً كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك»[١].

إن القدرة العقلية الاجتهادية التي طبعَت الثقافة الإسلامية أثناء عملية الانفتاح على الآخر، مكَّنتها من التمييز بين الصالح النافع والفاسد الضار، وهي التي مهَّدت لذلك العمل الجبار الذي قام به العقل الإسلامي لاستيعاب إنجازات الثقافات السابقة بعد تمحيصها وتصحيحها في إطار الثوابت التي حددها الإسلام: «عمل الفكر العربي الوقَّادُ عملَه، فصَحَّحَ أغلاط الفلاسفة، وصَحَّح نظريات الرياضة، وجاء دور الاجتهاد في هذه العلوم، فاستقل الفكر العربي بالفلسفة وكيَّفها على ذوقه الخاص، واستنبط في هذه العلوم طرائق

(١) عماد الدين خليل. حول إعادة تشكيل العقل المسلم. كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. الدوحة. قطر. ص ٦٦

وأنواعاً لم تكن معروفة من قبل للأوائل، وصحّح العلل وكشف عن الأوهام، وانتقد انتقاد المستقل»[١]، واستوعب كل ما وصل إليه من كنوز معرفية، وصبَغها بصبغته دون أن يَفقد خصائصه.

٢- الاعتراف بالآخر واحترام وجوده الفكري وكيانه الثقافي:

إن الانفتاح استعداد نفسي لقبول الآخر المختلف واحترامه ثقافياً وفكرياً، والاعتقاد بأن اختلافه تنوع طبيعي يبعث على الغِنى والتطور وليس تنوع تهديد أو عَداء، وهو فضاء واسع لاكتشاف المساحة المشتركة بين الأطراف المنفتحة على بعضها وبلورتها، والانطلاق منها مجدداً للنظر إلى الأمور من زاوية أوسع، وبعقلية متفتحة أكثر، ووجهة نظرٍ أغنى وأعمق.

والأساس الذي بُنيَت عليه الثقافة الإسلامية أن الاختلاف سُنة من سنن الله في الوجود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، وأن الكون قائم على التعددية، سواء في الشرائع: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨]، أم في الأجناس والقوميات التي تبدو في اختلاف الألوان واللغات: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وأن هذا الاختلاف ليس للتصادم والصراع، وإنما للتعارف والتعايش والتعاون الذي يقتضي الاعترافَ بالآخر والتفاعلَ معه، وتشجيعَ الالتحام العملي والاجتماعي بين البشر لإشباع حاجاتهم الحيوية ليستقيم أمر الحياة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

---

(١) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج١. ص ٢٦٢.

وبَناءً عليه، انفتحت الثقافة الإسلامية على ثقافات العالم القديم المتعددة وحضاراته المختلفة، وانطلقت في ذلك الجو المُفعم بتراث الأمم الديني والعقلي، بروح متسامحة وانفتاحية للغاية، ودخلَت معها في حوار واسع عميق دون خوف أو وجَل، وتعاملَت معها من منطلق الاحترام التام للكسب الإنساني، وطرحَت على بساط البحث والتحليل والنقاش العلمي الجاد؛ كلَّ المنظومات المعرفية التي طالتها أيدي علمائها، وعالجَت الإشكاليات الفكرية المضادة بعقلانية فريدة وثقة كبيرة.

قال الإمام الشافعي مستنداً إلى هذه القاعدة الانتقائية: «وما وُجدَ في كتبهم (يقصد الأعاجم) فهو مَغْنم كلُّه، وينبغي للإمام أن يدعو مَن يترجمه، فإن كان عِلمًا من طب أو غيره لا مكروه فيه؛ باعه كما يبيع سواه من المغانم، وإن كان كتابَ شِركٍ؛ شقُّوا الكتابَ وانتفعوا بأوعيته وأداته فباعها، ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل أن يَعلم ما هو»[1].

وقد دفع ذلك العلماءَ المسلمين إلى التوسع في نقل تراث الأمم والشعوب التي احتكوا بها؛ ليطّلعوا على خفاياها وخبايا معتقداتها، ويقارنوها بالحق الذي عندهم، ولعل في كُتب «المِلل والنِّحَل» للشهرستاني، و«الفَرْقُ بين الفِرَقِ» للبغدادي، و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» للبيروني؛ نماذج حية لهذا الانفتاح الواسع، والذي انجلى في مواقف كثيرة عن تدعيمٍ قويّ للفكر الإسلامي، وترسيخٍ مكين لمبادئه التي ظهرَت أصالتُها وإنسانيتُها بوضوح.

---

(١) أمين الخولي. المجددون في الإسلام. ص ٧٨.

وعاشت البشرية ردحًا من الزمن مرحلةَ تعددٍ وتنوعٍ وتعايشٍ سلميٍّ بين الأفراد والجماعات والديانات واختلاف أنماط الحياة والسلوك والعبادات، وكانت مدن الإسلام وحواضره: «نقطة الجذب والنموذج الإنساني الذي يُحْتَذى، ومِن موقع القوة والاقتدار؛ حافَظَ الإسلام على تراث الشعوب وحَضَنها واستوعبها واحترَم أديانها وعاداتها وتقاليدها»[١].

ولا نستطيع أن ندرك أبعاد هذا الشرط إلا إذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية مقابلة، وتتبَّعْنا الطريقة التي تعاملَت بها أوروبا مع الآخر عندما خرجت من قارتها يملؤها شعور جارف بالقوة والتفوق، واعتبرَت نفسها كائنًا حضاريًا حيويًا ومتطوراً؛ في مواجهة عالمٍ خاملٍ وشعوبٍ همجية متوحشة، ونظرَت إلى العالم كله على أنه ميدان للاستثمار الاقتصادي والسياسي والفكري، وأنها صاحبة مشروع كوني تمثل فيه أوروبا (المركز)، وباقي العالم مجرد مجموعة من الأطراف الساكنة المتعثرة، وهذا التمركز حول الذات هو الذي جعلها تعتقد أنها: «المرجعية الأساس لتحديد أهمية كل شيء وقيمته، وإحالة (الآخر) إلى مكوِّن هامشي لا ينطوي على قيمة بذاته إلا إذا اندرج في سياق المنظور الذي يتصل بتصورات الذات المتمركزة حول نفسها»[٢].

واعتماداً على ذلك؛ فإن عمليات الإبادة الجماعية للهنود الحمر في أمريكا، واختطاف ملايين السود الأفارقة للعمل كعبيد في مزارع البيض، والتدمير الكلي للبِنى التحتية لشعوب الأزَتيك والأنتيك بأمريكا الجنوبية، وتغييب معالم

(١) محمد عمارة وآخرون. العالم الإسلامي والنظام الدولي: الخلفية التاريخية والتحولات المعاصرة. ص ٣٧.

(٢) عبد الله إبراهيم. المركزية الغربية: إشكالية التكون والتمركز حول الذات. ص ١٣.

حضاراتها الغنية تغييباً كلياً؛ كلها قد لبِسَتْ ثوباً علمياً واكتست مبررات عقلية: «لا بد من القول علناً أن الأعراق المتفوقة لديها كامل الحق إزاء الأعراق الأدنى»[١]، كما أن هذه العنصرية العرقية وما ترتب عليها من النفي والإقصاء والتهميش؛ تحكَّمَت في كل تعاملاتها، وطبعت تاريخها مع شعوب العالم وثقافاته، وأسفرت عن عدم وجود أية رغبة لدى الإنسان الأوروبي في أن يقبل بوجود الآخر خارج إطار سيطرته المُحكمة، بل إنه يُصر على أن يكون الطرفَ الوحيدَ الفاعل والمتحضر الذي يمد الثقافة الإنسانية بنتاجه الفكري والعلمي، وكأنه هو النمط الوحيد للإنتاج، واتضح جلياً أن لديه مَيلا قويّا إلى جعل حضارته: «الحضارة المهيمنة، وجعْل أفكارها مطلقة لا مجرد ثقافة بين ثقافات عديدةٍ يَعُج بها العالم»[٢]، وما زال هذا النمط الغربي الاستعلائي هو السائد في زمن العولمة، بل إنه ازداد شراسة وقوة في ظل ثورة المعلومات والاتصالات.

وهذه المقارنة هي التي تكشف حيوية الثقافة الإسلامية وأصالتها وانفتاحها الإيجابي على العالم الذي حفظَت له علومَه وأثرتها، واحترمَت جميعَ الكِيانات الثقافية التي تعاملت معها واعترفَت بفضلها عليها، فلم تغبطها حقَّها ولم تَسْطُ على وجودها، واستطاعت بهذه الروح العالية المُفعمة بقيم الخير والجمال؛ أن تدفع بمسيرة الحضارة الإنسانية أشواطاً بعيدة.

وأبرز ما ميّز هذا الانفتاح الأمانة العلمية أو ما يسمى: احترام الملكية الفكرية، الذي كان مبدأ أساساً من مبادئ الثقافة الإسلامية، وبرز بشكل لافتٍ

---

(١) منصور مرشو غريغوار. نحن والآخر.

(٢) محمد عمارة. استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي، ص ١٥.

في حرص المسلمين على نسبة الفضل لأهله، حيث امتلأَت كتبهم بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم مثل: أبقراط وجالينوس وسقراط وأرسطو وغيرهم، وقد أنزلوهم منزلتهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح، ولم يُغْفَل اسمُ واحدٍ منهم، حتى ولو كان إسهامُه في الكتاب قليلاً، وعلى سبيل المثال؛ فقد ذكر أولادُ موسى بن شاكر في كتابهم (معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكُرويَّة) ما نصُّه: «فكل ما وصفْنا في كتابنا فإنه مِن عمَلِنا، إلا معرفة المحيط من القُطر؛ فإنه من عمل أرشميدس، وإلا معرفة وضْع مقدارين بين مقدارين لتتوالى على نسبة واحدة، فإنه من عمل مانالاوس»[١]، وقال أبو بكر الرازي في كتابه (الحاوي في الطب): «ولقد جمعتُ في كتابي هذا جُمَلاً وعيونًا من صناعة الطبِّ مما استخرجتُه من كتب (أبقراط)، و(جالينوس)، و(أرماسوس)..ومَنْ دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومَنْ بعدهم من المحْدَثِين في أحكام الطبِّ مثل: (بولس)، و(آهرون)، و(حنين بن إسحاق) و(يحيى بن ماسويه) وغيرهم»[٢].

وكانت المكتبات الإسلاميَّة تضم رفوفًا خاصة بالكتب المترجمة في نُسخ منفصلة منسوبة لأصحابها، وكان كثيرًا ما يقوم عالم من علماء المسلمين بالتعليق عليها دون أن يتدخَّل في مَتْنِهَا؛ لكي يحافظ على فكرة المؤلِّف دون تحريف، وهذا مثل تعليق الفارابي على كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو[٣].

---

(١) بنو موسى بن شاكر. كتاب معرفة مساحة الأشكال. تحرير نصير الدين الطوسي. ص ٢٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ج ١. ص ٧٠.

(٣) راغب السرجاني. احترام الملكية الفكرية في الحضارة الإسلامية

http://islamstory.com/ar /

أما الحضارة الغربية فقد مارسَت- بوحيٍ من تمركزها حول ذاتها واستعلائها على الآخر- قراءة انتقائية للتاريخ، فاصطنعَت لنفسها نَسبًا مباشراً مع أثينا وروما، وتجاهلَت الوسيط الحضاري الإسلامي الثري الذي ورَّث أوروبا التراث اليوناني، ووضع حجر الأساس لنهضتها الحديثة بما اغترفَت منه من علوم ومعارف من الأندلس وجنوب إيطاليا وتخوم الشام، رغم أن التاريخ يشهد أن الثقافة الإسلامية «حفِظت الثقافةَ اليونانية من الضياع، ولولا المثقفون والعلماء العرب، لما وصلَت إلى أيدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربي، ولقد ظل الغرب يشتغل على الثقافة العربية حتى بعد أن تقلَّص ظِلُّها في الأندلس بجيلين أو أكثر حتى وصل إلى العصور الحديثة»[١]، وتمَّ إخراج الثقافة الإسلامية من الذاكرة الأوروبية، واستصغار إسهاماتها في الحضارة الغربية، واعتبارها نسخة مُشوهة مرتدة للثقافة الغربية المسيحية الغابرة[٢]، وأظهرَت نفسها وكأنها إغريقية رومانية مسيحية الجذور، ليس بها مؤثرات خارجية شابتها، «وظهرت كتابات تنظر إلى تاريخ البشرية وكأنه بدأ مع الإغريق والرومان، ثم حدث فيه تقطع أو جمود، ثم عاد للظهور في باريس ولندن من جديد»[٣]، بل إن الغربيين ذهبوا بعيداً في هذا المضمار حينما اعتبروا الحضارة اليونانية معجزة تفجرت بالمعارف الغزيرة من العدم، وأن الإنسان الآري هو الذي أبدعها، بينما تُثبت

(١) عبد العزيز بن عثمان التويجري. الثقافة العربية والثقافات الأخرى. فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة. الرياض، مارس ١٩٩٨م. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. ص ١٠

(٢) برهان غليون. «العرب والغرب». رسالة الجهاد. س ٨. ع ٨٠. سبتمبر ١٩٨٩ م. ص ١٥١.

(٣) مالك بن نبي. في مهب المعركة. ص ١٦

الدراسات التاريخية أن المعارف التي انحدرت من بابل وكنعان ومصر والهند؛ هي التي هيأت الظروف لظهورها، وأن لها أبـًا وأُمًّا شرعيان: «أما أبوها فهو تراث مصر القديمة، وأما أُمها فهي مَهْد بلاد ما بين النهرين والشرق القديم مهد الحضارات، والمعلِّمِ الأول للبشرية في المجالين:المدنية المادية والعلوم كلها، وفي المجال الروحي والمعتقدات الدينية»[١].

٣- التكامل والمشاركة: إن الانفتاح يتم بين طرفين إيجابيين، ويقوم على الأخذ والعطاء وتبادل التأثير والتأثر، فيتحقق عن طريق التكامل والمشاركة، وعندما يتوقف أحد الطرفين عن المشاركة فيه ويكتفي بما يرِدُه من خارج نطاق ذاته الحضارية، يفقد الانفتاحُ أساسه وعمقه الاستراتيجي، فيسقط في إحدى النقيصتين: التقليد والاستلاب، أو الغزو الفكري والهيمنة، وقد تحدثنا عن الغزو الفكري والفرق بينه وبين الانفتاح، وأوضحنا أن الانفتاح يُنتج على الدوام الثراء الفكري والغنى الثقافي والتقارب بين الجماعات البشرية، أما الغزو الفكري فلا يُنتج إلا التنافر والتباعد وازدياد الفجوة بين الشعوب والأمم.

والثقافة الإسلامية التي كانت تستند إلى مرجعية ربانية المصدر؛ وترتكز على قيم حضارية راقية؛ مارست الانفتاح الإيجابي القائم على الأخذ والعطاء، وكانت تتلقّى التأثيرات الخارجية طَوعـًا وهي تتمتع بثقة كبيرة فيما عندها؛ لأنها تملك العناصر الحية التي تستقبل الوافدَ الجديد فتهضمه وتُحَوِّلهُ إلى طاقة خلاقة، كما كانت تُقْبِل بروح متسامحة على ما عند الآخر دون أن تتجاوز خصوصيتها الحضارية، «ومن حقائق طب الحضارات أن تقليد حضارة لأخرى وخاصة في (الهوية) وثوابت السمات، والقسمات المميزة لخصوصيتها على

(١)جورج سارتون. تاريخ العلم. ترجمة: محمد خلَف الله وآخرون ، ص ٢١.

النحو الذي يؤدي إلى التبعية؛ يقود إلى الذوبان والاضمحلال الحضاري»[١]، لأن الانفتاح لا يتم إلا في أجواء الثقافة الناهضة الحية المستعدة للعطاء.

فرغم التفوق العلمي والمادي الذي كانت تتمتع به الأمم والشعوب المغلوبة، إلا أن المسلمين لم يحسّوا بعقدةِ نقْصٍ تجاه ذلك، بل شعَروا أنهم مسؤولون أمام الله عن هذه النعم التي أسبغَها عليهم، وأن واجبهم المحافظة عليها والانتفاع بها ضمن الحدود التي رسمها لهم القرآن والسنة، فأقبلوا على هذه الذخائر العلمية والكنوز المعرفية بروحٍ واثقة، وتشرّبوا ما تحمِله من الحكمة وكيّفوها مع روح الأمة في مبادرةٍ حضاريةٍ راقيةٍ تكاد تقتصر على الثقافة الإسلامية في تاريخ البشرية، «إذ لم يَعرف التاريخ الإنسانيُّ في مختلف عصوره، أن ثقافة منتصرة غالبة قبِلت التفاعلَ مع الثقافات المنهزمة، وأقبلت على التواصل مع الحضارات المنهارة، وأبقت على مصادرها وآثارها، وتسامحَت مع الأديان والعقائد التي نبعَت منها»[٢].

٤ - الانتقال السلمي والطوعي والهادئ لأشكال الانفتاح:

من أسس الانفتاح بين الحضارات والثقافات؛ أنه يتم في إطار سلمي وبيئة هادئة مستقرة في الأغلب، تساعد على انتقال العلوم والمعارف والخبرات وأساليب العمران والفنون والآداب بين البيئات الثقافية المختلفة، فأكبر أشكال الانفتاح بين بني البشر عبر التاريخ تَمَّ في جوٍّ من التبادل الطوعي، وكان أبطالُه من العلماء الذين أُغرموا بالبحث عن الحكمة والحقيقة، فجابوا البُلدان، ونقَّبوا في الآثار، واقتنوا الكتب الكثيرة، ونشطوا في الترجمة، كما حمل التجار قسطًا

(١) د. محمد عمارة. العطاء الحضاري للإسلام. ص ١٣٠.

(٢) عبد العزيز بن عثمان التويجري. الثقافة العربية والثقافات الأخرى. ص ٨.

وافراً من هذا العبء، عندما تحولت تجارتهم إلى وسيلة فعالة لانتقال القيم والأفكار والسلع الجديدة والمخترعات، بالإضافة إلى الرحالة المغامرين الذين كانوا وسيطاً حياً بين الشعوب، وغيرها من العوامل.

ففي أجواء الأمن والاستقرار، حين يطمئن الناس على أرواحهم وأرزاقهم؛ تنشط حركة الانفتاح وتتطلع النفوس للسياحة والتجوال والتنقل لإشباع الفضول، وتتسابق لامتلاك العلوم والمعارف، وتسعى سعياً حثيثاً لإرواء غريزة حب التعلم التي تجد لها وسطاً ملائماً، ومجالاً حيوياً تتمدد فيه، فتتسارع وتيرتُه، وتنفتح القنوات التواصلية بين الأمم، وتمد جسور التعارف، وتتولى الطلائع الثقافية في كل جماعة بشرية مُهمةَ بناء قواعد الانفتاح وتمتين أواصرها.

وفي ظلال الأمن والتراضي والتبادل المبني على المبادرة الذاتية؛ يؤتي الانفتاح أُكُلَه، فإذا فُرِض من طرف أقوى على طرف أضعف؛ فقَدَ معناه وذهب أثرُه الإيجابي، لأن من مقتضيات الانفتاح أن يتم بعيداً عن ممارسات القوة والعنف والتسلط والإخضاع، «إن أي انفتاح شرطه الأساس: ارتفاع الخوف المتبادل، الخوف من الغَلبة والقهر والإفناء، ولذا فالانفتاح يجب أن لا يتم ضمن منظومة علاقات القوى، وإنما ضمن منظومة علاقات القيم وعلاقات الحقيقة، ذلك أن هدف المعرفة بلوغ الحقيقة، والحقيقة لا تخضع لموازين القوى، وإنما تخضع لموازين الحقيقة ومعاييرها، وبالتالي فإن أي إقحام للقوة في عملية التفاعل يقضي عليها بالكامل، لأن القوة تطمح إلى مَحْوِ الآخر وإلغائه لمصلحةٍ ما، يَرفُد تعاظُمُها واستمرارُها»[1].

(١) مصطفى الحاج علي. «الاختلاف والتعارف في القرآن الكريم». مجلة المنطلق. ع ١٠٥. أيلول ١٩٩٣م. بيروت. ص ٥١.

وأخصب فترةٍ شهدت فيها الثقافة الإسلامية انفتاحاً واسعاً على الآخر العصرُ العباسي الذي بلغَت فيه الدولة الإسلامية أزهى فترات رُقِيِّها وازدهارها، وتوطدت فيه أركانها، وساد الأمنُ ربوعَها، وبدأت فيه حركة الترجمة النشِطة التي أشرف الخلفاء عليها، فرصدوا لها ميزانيات ضخمة، ومؤسسات رسمية، واستقدموا لها كبار المترجمين وأكفاءهم، ورتبوا لها الجوائز والمكافآت، وصارت الترجمة طابعاً عاماً للمجتمع، يتنافس في تشجيعه ودعْمه وتوسيع دائرته الحكام والمحكومون.

وفي هذا الجو العلمي الآمِن المستقر النشِط؛ عرفَت مختلف الثقافات طريقَها إلى اللغة العربية، ولم يتوانَ المترجمون في طلب مصادرها والتنقيب عنها، والرحلة في طلبها، والاجتهاد في تَقَصِّي أخبارها؛ تماشياً مع الجو العام الذي كان يسود المجتمع، ويشجع الإقبال على تراث الأمم المجاورة بشغف زائد، «حتى لَيكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم يُنقل إلى العربية، سواء ما اتصل بالصناعات، أو بالعجائب والأسمار والخرافات، أو بالمِلل والنِّحَل، وكانت كل هذه السيول تتجمع في دكاكين الوراقين، ويطلب كلٌّ منها ما يجد فيه متاعَه»[1]، فبلغ الانفتاح ذروته، وآتى أُكُلَه سائغاً.

وقد عدَّ الماوردي توفّر السلْم والأمن؛ أحد القواعد الستة التي تَصلح بها الدنيا وتنظّم أحوالها، فقال في القاعدة الرابعة: «هي أمن عام تطمئن إليه النفوس، وتتيسر فيه الهِمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم،

(١) شوقي ضيف. العصر العباسي الأول. ص ١١٧.

ويحجزهم عن تصرفهم، ويكُفُّهم عن أسباب الموادّ التي بها قوام أوْدِهم»[١]، وعدَّه الفيلسوف وِل ديورانت الحد الفاصل الذي يؤسس للحضارة؛ لأنها تبدأ عنده «حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمِن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذٍ لا تنفكُّ الحوافز الطبيعية تستنهض للمُضيِّ في طريقه إلى فهْم الحياة وازدهارها»[٢].

وقد يخرُق هذه القاعدةَ بعضُ الاستثناءات التي سجّلها التاريخ عن انفتاح الثقافات على بعضها أثناء الحروب، كما في غزوات الإسكندر الأكبر الذي حمَل معه ذخائر الثقافة اليونانية إلى بلاد فارس، واستولى على مكتبات فارس بعد انتصاره، وأرسل كثيراً من محتوياتها إلى أستاذه في بلاد اليونان، وكما في الحروب الصليبية التي كانت فرصة ثمينة نقَل خلالها الغرب الأوروبي كنوز الثقافة الإسلامية إلى بلاده، يقول المؤرخ هرنشو Hearnshaw: «خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة»[٣]، لكن ذلك لا يَكسر القاعدة؛ بل يؤكد أن الانفتاح حركة عفوية إنسانية تتحدى كل الظروف، وتَفرض نفسها في كل الأحوال.

(١) أبو الحسن الماوردي. أدب الدنيا والدين. شرح وتعليق: محمد كريم راجح. ص ١٥٧.
(٢) وِل ديورانت. قصة الحضارة، عصر الإيمان.. منشورات جامعة الدول العربية. ج١. ص ٤.
(٣) هرنشو: علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ص ١٢٠.

رابعـاً: خصائص ومميزات الانفتاح على الآخر

تميز انفتاح الثقافة الإسلامية على الآخر بجملة خصائص طبعَتها؛ إذ استمدَّتها من طبيعة المرجعية المنبثقة عنها، ومن السيرورة التاريخية التي أفرزَتها، ومن جملة العوامل الذاتية والخارجية التي تحكّمت في مسيرتها، وأهمها ما يلي:

١ - **التسامح الديني والفكري**: فحرية العقيدة قررها قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ووجدت ترجمتها الصادقة على أرض الواقع، حيث يشهد التاريخ أن أصحاب الديانات المختلفة قد وجدوا من المسلمين كل العناية والرعاية، وضمِن لهم الدين الجديد جميع حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية.

فأصحاب المِلل من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة؛ يمارسون عباداتهم آمنين مطمئنين، ويقومون على شؤون معابدهم بأنفسهم، لا تتدخل الدولة في أمورهم، ولا تُضَيّق عليهم فيها، كما كانوا يُنشؤون المدارس التي يقصدها أبناؤهم، وتذكر المصادر أن اليهود كانت لهم أحياء كبيرة تضم مدارس الحاخامات والمعابد، ويُشرف على تصريف أمورهم رئيس الحاخامين الذي يملك سلطات تشريعية وروحية واسعة[١]، وكان لبطريرك النصارى حق السُّكْنىَ ببغداد التي جعلها مقراً لكرسيه، وكان للنصارى الحق في بناء الأديرة والأبرشيات في مختلف المدن والحواضر، وبقيت بيوت النيران على حالها، يقصدها المجوس الذين شملهم عهد الذمة، و«من أبرز معالم التعايش

(١) فيليب حتّي وآخرون. تاريخ العرب. ص ٤٢٦.

السلمي الذي يقرّه الإسلام للآخر توفيره لغير المسلمين بوجودٍ اندماجي يحافظ فيه على جميع مكونات شخصيته، وفي طليعتها المكون الديني وما يرتبط به من ممارسات وعادات، بها يؤكد ذاته عقائديًا وثقافيًا ونفسيًا، ومعها يثبت خصوصيات هويته مما يتحقق به الانتماء إلى ذلك المجتمع»[١].

وبشيوع الأمن والطمأنينة بين الجميع، توطدت العلاقات الاجتماعية، وانتفت النزاعات الدينية، وسادت المجتمعَ روحُ التعاون، وشارك كل أفراده في الحياة اليومية، ويذكر الجاحظ أن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة، وأن الخلفاء قد أفسحوا لهم الميدان واسعًا ليُثبتوا جدارتهم في مختلف أنواع العلوم والصناعات التي برعوا فيها، فكان منهم كُتاب السلاطين، وأطباء الأشراف، والعطارون والصيارفة والمنجّمون وكُتَّاب الدواوين والمترجمون[٢] وغيرهم.

وتزخر مصادر الأدب والتاريخ بأسماء أهل الذمة الذين مارسوا حياتهم العلمية والاجتماعية في أحسن الظروف، وتقلدوا أرفع المناصب وأخطرها في الدولة، ونبغوا في مختلف مجالات العلوم، فقرّبهم الخلفاء وأكرموهم وأجروا عليهم الأرزاق، وأتاح لهم هذا التسامح العظيم فرصًا ثمينة للمشاركة في بناء الدولة والمجتمع؛ وإمداده بما يحتكمون عليه من الخبرات والمهارات والإمكانات المادية التي أُضيفت لرصيد الثقافة الإسلامية، ومكّنت الطرفين من

---

(١) حسن عزوزي. الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري في عصر الصحوة الإسلامية. أبحاث المؤتمر الإسلامي العالمي للحوار. مكة المكرمة. من ٤ إلى ٦/ ٠٦/ ٢٠٠٨ م. رابطة العالم الإسلامي. ص ٤٤٥.

(٢) شوقي ضيف. العصر العباسي الأول. سلسلة تاريخ الأدب العربي. ص ٩٦ - ٩٨.

التعارف العميق والتبادل الحر، وشجعت الجانبين على التفاعل بقوة وإيجابية وبَذل الوسع عن طيب خاطر، والاندماج التام في حركة بناء الحضارة.

كما كان لهذا التسامح الديني دوره البارز في إدماج الشعوب والأمم على اختلاف أجناسها وعاداتها وثقافاتها في المجتمع الإسلامي، عن طريق إقبالها على اعتناق الإسلام عن رغبة صادقة وإرادة حرة، وعن طريق الولاء للدولة وإن كانت على غير دينها، «وبذلك استطاع الإسلام- بتعاليمه السمحة- أن يُحدث امتزاجًا قويًا بين العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة، وهو امتزاج لم يبلُغه بامتلاك الأرض المفتوحة، إنما بلَغه بامتلاك القلوب، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التي انبسط عليها سلطانُه تُسلِم، وإذا مَن بقوا على دينهم يَشعرون تلقاء المسلمين وحكّامهم بضربٍ من الأُخوة الكريمة»[1].

٢- **حرية التفكير والتعبير**: تمت عمليات الانفتاح الثقافي على الآخر في ظلال الحرية الفكرية التي كفلها الإسلام للآراء المخالفة والمذاهب المعارضة، وكان الدين الوحيد الذي فتح أبواب الحوار على مصراعيه، ودعا إلى طرح الأفكار للمناقشة والمقارنة والموازنة ليتبيّن الحق ويزهق الباطل، وتوطدت أركان هذه الحرية في العصر العباسي بعد أن استقر أمر الدولة وقلَّت الثورات وخفَّت حركة الفتوح، ورسَّخها الخلفاء كمفهوم أساس في المجتمع، ومارسوها ممارسة فعلية رائعة، وفتحوا نوافذ الفكر على جميع التيارات والمذاهب والأديان، وكانوا يؤمِنون بأن الفكرة التي تمثل الحق ستَغلِب كل فكرة باطلة إذا ما التحمت الفكرتان في ساحة الحجة، والتقتا على الحجة الواضحة

(١) المرجع نفسه، ص ٩٠.

والدليل القويّ، عندها سيكون البقاء للأصلح.

ومن بين أشهر هذه المجالس مجلس المأمون الذي كان متضلعاً في العلوم النقلية والعقلية، ذا ثقافة واسعة عميقة، وكانت مجالسه بدار الخلافة ببغداد؛ حلقات فكرية وندوات علمية تُطرح فيها المسائل والقضايا في شتى فروع المعرفة، وكان يحي بن أكثم يتولى اختيار العلماء الذين سيحضرون مجلسه: «أمَرني المأمون أن أجمَع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فاخترتُ له من أعلامهم أربعين رَجلاً، وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم، ولما انتهى ذلك المجلس؛ طلب إليَّ المأمون أن أنوّع مجالسَه بحيث يكون لكل طائفة من العلماء مجلس»[1].

ولم تكن هذه المجالس مقصورة على الخلفاء فقط، فقد سرَت عدواها إلى باقي طبقات المجتمع منذ أيام المهدي وهارون الرشيد، وأصبحت بيوت الوزراء والأمراء والأعيان والعلماء منتدىً للبحوث العلمية، والمناظرات الفكرية، وتبادُل الآراء، وقرْع الحجة بالحجة، وكانت حرية التفكير والتعبير في هذه المجالس مكفولةً للجميع، ولكل واحدٍ الحق في أن يَعرض آراءه ويدافع عنها مهما كانت؛ على أن يحترم أصولَ المناظرة وآدابَ الحوار، ويتحلى بحسن الخُلق وسَعة الصدر، لتبقى الكلمة العليا للحق الذي يعضده العقل ويؤيده بالدلائل والبراهين، وبهذه الحرية التي شملت الجميع استطاعت الثقافة الإسلامية أن تستقطب تراث الأمم والشعوب المختلفة، وأن تطَّلع على خفاياها وخبايا معتقداتها ومفاهيمها، مما أتاح للمسلمين فرصة ثمينة للموازنة بينها وبين الحق الذي عندهم، فيشتدوا في المحافظة عليه والدفاع عنه.

---

(١) أحمد بن أبي طاهر طيفور. تاريخ بغداد. ص ٤٥.

٣- **التنوع الثقافي**: إن الانفتاح الذي ميّز الثقافة الإسلامية خلال قرون من ازدهارها وانتشارها في أطراف العالم؛ أتاح لها أن تحتضن روافد وتيارات حضارية متباينة، وأن تُشرك فيه أجناساً عديدة وقوميات مختلفة لإثرائه، وأسهمَت في إنجاحه، وتكوَّن من ذلك مزيج متجانِس من الثقافات المتعددة المصادر؛ تركَت كل منها بصماتها الواضحة؛ مما أضفى عليها طابع التنوع والثراء، لكنه لم يُفقدها أصالتها، فقد استطاعت الثقافة الإسلامية بما أوتيت من قوة التأثير أن تَصبغ كل ما ورد إليها بصبغتها الخاصة، وتُوجِّهها إلى خدمة أهدافها الحضارية الكبرى، وتَستبعد كل ما يمكن أن يمَس جوهرها بسوء.

وخاصية التنوع التي ميزَت الثقافة الإسلامية في علاقتها مع الآخر؛ نتيجةٌ طبيعية للانفتاح الذي مارسَته تجاه جميع الثقافات دون تمييز أو إقصاء أو خلفيات عنصرية استعلائية، وتعاملَت مع موروثاتها تعاملاً عادلاً، فتمخَّض عن هذا التنوع قوة حضارية هائلة ذات طابع إنساني، الأمر الذي حفّز أصحاب المواهب والعبقريات على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم ومذاهبهم ومِللهم ونِحَلهم؛ للانخراط في فعاليات هذه العملية الانفتاحية وإثرائها والإسهام في تنميتها وتطويرها. يقول ستانوود كوب Stanwood Cobb عن تنوع المصادر التي استقَت منها الثقافة الإسلامية في انفتاحها العالمي وقُدرتها على احتوائها بقوة واقتدار: «إن الإمبراطورية الإسلامية قد خلَقتها مشاركة إرادية في العمل، اجتمع عليها الإغريق والفُرس والقِبط والمجوس والصابئة واليهود، ولكن لا تفسِّر هذه المعاونة تماماً ما يمكن أن يسمى بمعجزة العلم العربي، ونحن نستعمل كلمة معجزة كرمزٍ لعجزنا عن تفسير المنجَزات التي

تكاد تكون غير قابلة للتصديق، فلا يوجد لها مثيل في تاريخ العالم كله»[١].

٤ - **الانفتاح العمودي والأفقي**: إن انفتاح الثقافة الإسلامية على الآخر لم يكن أفقياً سطحياً بسيطاً، فهو لم ينحصر في طبقة معينة من طبقات المجتمع، ولم يقتصر على شريحة واحدة من شرائحه، ولم يكن وقفاً على نوع معين من أنواع العلوم، أو صِنفٍ خاص من أصناف المعرفة، بل كان عميق الامتداد، ضرَب جذوره في أعماق المجتمع الإسلامي الذي كان يمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم شمالاً كما أسلفنا من قبل، وبذلك غطى هذا الانفتاح كل مظاهر وأشكال الحياة الاجتماعية والفكرية؛ وتجاوزه إلى التراث الثقافي في أعلى درجاته كالرياضيات والفَلك والطب والكيمياء والفيزياء والتاريخ والجغرافيا وعلم الحيوان والنبات، وانعكس ذلك كله على الثقافة الإسلامية التي جسّدت هذا العمق.

(١) ستانوود كوب. المسلمون في تاريخ الحضارة. ترجمة: محمد فتحي عثمان. ص ٨٩.

خامساً: نحو استراتيجية لانفتاح الثقافة الإسلامية على العولمة

أثبتت الأحداث أن الثقافة الإسلامية منذ أن اصطدمت بالغرب الأوروبي الذي شن عليها هجوماً كاسحاً في العصر الحديث؛ قد أبْدت تأبِّيًا وصلابة لا تُضاهى، وقاومَت كل أساليب الاختراق والاحتواء على الرغم من نزعة الخصم الاستئصالية وقوته وتفوقه في كل المجالات، كما شكّلت طوال فترة هذا الصراع؛ الحصن المنيع الذي احتمى به المسلمون للحفاظ على كيانهم الثقافي من الذوبان والتلاشي، ولا شك أن طول المرحلة التاريخية التي عانت فيها الثقافة الإسلامية من الحصار والاختراق والغزو الفكري المنظم والمكثف؛ قد أثر فيها إلى حد كبير، ثم وجدت نفسها فجأة وجهاً لوجه أمام تيار العولمة الذي قلب موازين القوى، وفرَض على البشرية واقعاً جديداً يعيشه بعضُهم طرفاً فاعلاً ومؤثراً، بل وموجّهاً وآمراً، وبعضهم الآخر يعيشه سلبياً متلقّياً، ومتفرّجاً مشدوهاً.

وقد وُوجِهَ هذا التحدي بردود أفعال متباينة؛ بين الانطواء والرفض والسلبية والدعوة إلى مقاطعة العولمة والانكفاء على النفس، وبين الانفتاح التام عليها والدعوة إلى الارتماء في أحضانها للاستفادة من إيجابياتها تحت المظلة الغربية، وكِلا الموقفين مُبَالَغٌ فيه، لأنه يضعنا بين خيارين قاتلين يدمران الذات الثقافية ويقضيان على كل فرص الانفتاح الإيجابي، لذا فإن المسلمين مدعوون لإدراك أنَّ تفاعل الثقافة الإسلامية مع العولمة أمر لا بد منه، لأن بقاءها بعيدة عنها لا يعني أنها لا تخضع لقوانينها، أو أن بإمكانها أن تبقى بعيدة عن تأثيراتها، ولكنه يعني الدخول فيها من باب تحمل عواقبها السلبية من دون الاستفادة من إيجابياتها[1]، وعليهم أن يدركوا أيضاً أن التفاعل مع العولمة مغامرة مليئة بالفُرص والمخاطر في

(١) برهان غليون وسمير أمين. ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. ص ٣٤.

الوقت نفسه، «ونتيجةً لشدة تداخل الفرص والمخاطر؛ فإنه من غير الممكن اختزال العولمة في المخاطر دون الفرص، أو في الفرص دون المخاطر، ولا يمكن تجاهل إيجابيات العولمة الواضحة كل الوضوح، كما لا يمكن استبعاد سلبياتها البارزة كل البروز»[١].

إن انغلاق الثقافة على نفسها خوفًا من المواجهة؛ دليل على ضعفها، وهذا ليس من طبيعة الثقافة الإسلامية؛ لأن الثقافة الحية ليست قوالب متكلّسة تحبس أصحابها بين جدرانها وتقيّد حركتهم، بل هي قوة منفتحة تتفاعل باستمرار مع متغيرات الزمن لتكتسب أصلَحَ ما فيه وتُثْري به رصيدها، وهذا هو السبيل إلى ثقافة فاعلة، قادرة على التوسع والانتشار عبر عمل نقدي يجدد القيم والمعايير، وهذا التفاعل مع العولمة يتطلب استراتيجية ثقافية تمكِّنُ المجتمعات الإسلامية من الاستفادة منها والحد من آثارها السلبية، وتتيح لها تغيير الشروط غير المتكافئة التي يحصل فيها الاحتكاك الثقافي، والتي تُفضي إلى سيطرة الثقافات الأقوى والأكثر تطوراً ونضوجًا، ومن المفردات الأساس لهذه الاستراتيجية التي يجب أن نتوقف عندها مَليًا:

١ - تعزيز موقع الثقافة الإسلامية في المجتمع، والتشبع بمبادئها وقيمها، والتجاوب مع مفاهيمها وتصوراتها التي تحيل جميعا إلى مرجعية الأمة المقدسة: «فالإطار المرجعي ينبغي أن يتحدد للمسلم المعاصر بالقرآن مصدراً ومنشأً للفكر والتصور والعقيدة والقيم، ولأسس النظم وقواعدها، وبالسنة النبوية باعتبارها مصدراً مبينًا لهذا القرآن

(١) عبد الخالق عبد الله. «العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها». مجلة عالم الفكر. ص ٤٣.

بمختلف أنواع البيان»[١] والاعتزاز بها، والتمسك بأصولها من خلال التزام المسلمين بمختلف القيم والسلوكيات الإسلامية، وترسيخها في وجدانهم ووجدان أهاليهم وأُسرهم ومحيطهم، والعمل على استيعاب علوم العصر والتفاعل مع مستجداته وتطوراته، حتى نتمكن من تجنب المزالق الحضارية التي تستدرجُنا إليها مختلف المذاهب والتيارات والفلسفات التي تتناقض معطياتها مع طبيعة هذه الثقافة وثوابتها. فالإسلام: «تصوّرٌ غير متطور في ذاته، إنما تتطور البشرية في إطاره، وترتقي في إدراكه، وتظل تتطور وتترقَّى، وتنمو وتتقدم، وهذا الإطار يسعها دائما، وهذا التصور يقودها دائما»[٢].

٢- عدم الانبهار بالآخر انبهاراً يفضي إلى فقدان الثقة بالذات، والذي سيطر على المسلمين حتى أصبحوا لا يكادون يثقون بما ينتجونه وما يبدعونه إلا إذا باركَته الحضارة الغربية، ومحاولة مقاومة جذبه وردِّه إلى حدوده الطبيعية، وهذا يفضي إلى التِّيه عن منهج التفاعل والانفتاح في حدود الاحتفاظ بالثوابت التي تحمي الثقافة الإسلامية من خطر الاستلاب والذوبان، ومقاومة جميع مظاهر هذا الانبهار التي وفدَت علينا في لحظات الضعف والغفلة؛ كشيوع الثقافة الاستهلاكية، وإطلاق العنان للشهوات وملاحقة مستجداتها، الأمر الذي أفضى إلى تفريغ الإنسان من ثقافته، وعزْله عن قضاياه وهمومه، وبث الضعف والتشكيك في قناعاته الدينية، وثوابته الثقافية، ومقوماته الحضارية.

---

(١) طه جابر العلواني. كيف نقتحم متغيرات المستقبل من خلال ثوابت الماضي؟ كتاب المعرفة. ص ٤٠.

(٢) سيد قطب. خصائص التصور الإسلامي. ص ٤.

إن تجاوز مرحلة الانبهار، والتأسيس لمرحلة جديدة قوامها الاعتزاز بالهوية والتمسك بالمقومات الحضارية والثقة في قدرتها على إمداده بالقوة المعنوية الكافية لضمان تماسكه في وجه التحديات؛ سينقُل المسلمين من حالة التقليد والتبعية إلى مجال التجديد والابتكار والإبداع والاستقلال المعرفي الذي سيمكّنهم من نقد الآخر نقداً واعياً يؤسس لعهد جديد، خاصة وأن الأمة الإسلامية تملك- في إطار صراعها مع الغرب العولمي- رصيداً ثرياً من القيم التي تؤهلها للتأثير في مسار العولمة.

٣- إعادة بناء الذات وفق معطيات العصر وتجاوز كل الآليات التقليدية، فإذا كان الانفتاح الثقافي قد خضع تاريخياً للآليات المناسبة لذلك العصر؛ فإن الزمن اليوم قد تغيّر بشكل جِذري في كل أشكاله، ويتعين على المسلمين أن يسايروه باقتباس آلياته والتفاعل معها لاكتساب القدرة على التأثير، وإن العقيدة والمبادئ والقيم؛ من الثوابت التي يستند إليها المجتمع لضمان تماسكه، والمتغيّر هو الفكر والفهم والتطبيق والخطاب وأسلوبه ووسائله، فهذه المتغيرات هي التي يجب أن تخضع لظروف العصر ومتطلبات المرحلة، فالتطور الحضاري يجلب معه باستمرارٍ أسئلةً وتحديات جديدة، والثقافة التي تنشُد الاستمرارية والبقاء؛ يتعيّن عليها أن تواكب واقعها بالإجابة عن أسئلته، واستيعاب مستجداته انطلاقاً من ثوابتها، من خلال تعاطٍ إيجابي تفاعلي انفتاحي بين واقعٍ حيّ متغيرٍ باستمرار، وبين النصوص المعصومة، فالثقافة: «ليست مجموعة مكونات ساكنة وثابتة جامدة مغلقة، بل متطورة باستمرار، متغيرة ومَرنة نسبياً، ومنفتحة ومتحولة نتيجة لتغير الأوضاع

والأزمنة والعلاقات الداخلية والخارجية»[١]، والثقافة الإسلامية مطالبَة اليوم بأن تسعى إلى إيجاد نسق من السلوك والعادات والقيم التي تسمح لها بزيادة الانخراط داخل المنظومة العالمية.

٤- ضرورة الاستفادة من المعطى التكنولوجي لتغيير الشروط غير المتكافئة التي يحصل فيها الاحتكاك الثقافي والتي تُفضي إلى سيطرة الثقافات الأقوى والأكثر تطوراً ونضوجًا، «فالعلم هو الذي يقوم حاليًا بخَلق عالم جديد وحضارة جديدة، ولحظة تاريخية مختلفة كل الاختلاف عن كل ما هو قائم حتى الآن، لقد تحوّل العلم والثورة العلمية إلى قوة من القوى الكاسحة التي تصنع الأحداث وتُشكّل المستقبل، وتعيد ترتيب أولويات الدول والمجتمعات والأفراد، فمن يمتلك هذه القوة ويُحسن توظيفَ نتائجها الباهرة؛ يملك مصيره، ويَعرف كيف يتدبر شؤونه؛ ويتمكن من التأثير في الآخرين بما في ذلك القدرة على إدارة شؤون العالم سياسيًا واقتصاديًا»[٢].

والتحدي الذي يواجِه الثقافة الإسلامية هو أن هناك تطوراً تكنولوجيًا جباراً ماضيًا في سبيل تيسير الحياة البشرية، يُشرف عليه عقل غربي بلغ أرقى نضجه وفعاليته، وقد أضحى امتلاك المسلمين لهذه التقنية والقدرة على استخدامها لفك الحصار عن أنفسهم، والدخول كطرف فاعل في صنع

(١) سليمان كايد. دور الجامعات في مواجهة تحديات العولمة الثقافية وبناء الهوية العربية الأصيلة والمعاصرة.ص ٩. ضمن فعاليات مؤتمر المسؤولية المجتمعية للجامعات الفلسطينية. جامعة القدس المفتوحة. نابلس ٢٦/ ٠٩/ ٢٠١١.

(٢) عبد الخالق عبد الله. «العولمة. جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها» مجلة عالم الفكر. ص ٦١ - ٦٢.

الأحداث؛ من الضروريات الحيوية، فالغياب عن الحِقبة الإلكترونية يعني أن نبقى بعيدين عن العلم، وهذه وصفة مؤكدة للفشل في كل مسعى، والتحدي الذي يواجهنا هو إزالة الأمية الإلكترونية[١]، وتنشئة الأجيال على استخدام تكنولوجيا المعلومات، والاندماج بقوة في ثورة الاتصالات، واكتساب الآليات العصرية لإنتاج المعرفة والتواصل مع العالم من خلالها لتمهيد السبيل لاستنبات التقنية في بيئتنا؛ وامتلاك القدرة على الفعل.

٥- ضرورة الانتقال من ردود الأفعال إلى الأفعال؛ **أي من الدفاع إلى الهجوم**، فقد عاش المسلمون منذ بداية نهضتهم خلال القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا؛ سلسلة متواصلة من ردود الأفعال، وتمّ حصار الثقافة الإسلامية وحبْسها في قالب الدفاع عن نفسها ضد الشبهات والاتهامات والإشكالات الفكرية والثنائيات المفتعلة التي يرميها بها الغرب، ويشغل بها أصحابها الذين انغمسوا بكل طاقاتهم في هذه المعارك التي لا تكاد تنتهي واحدة منها بعد أن تفقد مبررات وجودها حتى يتم - بمكرٍ بالغ - إشعال نيران معركة أخرى تستنزف مقدرات الأمة الفكرية.

لقد غلب على الثقافة الإسلامية الطابع الدفاعي للتصدي للمشكلات والقضايا التي يَقذفها بها الغرب، فتحتجز نشاطَها وتستوعب فاعليتَها وتلهيها عن قضاياها المصيرية، «إنها عملياتٌ لإلهاء الأمة عن مشكلاتها الحقيقية واستمرارية التحكم بنشاطها الثقافي وإنتاجها الفكري، وصرْف فاعليتها إلى الساحات التي يرسمها العدو ابتداءً؛ بحيث تنتهي الأمة التي تشعر بالخطر ولا

(١) غازي بن عبد الرحمن القصيبي. العولمة والهوية الوطنية. ص ١١٦.

تستطيع أن تقدره قدره، إلى التصرف بضرب من ردود الفعل لا تملك معها من أمرها شيئًا، وكلما حاولَت الانتصار في موقع، فتح العدو عليها المعركة في موقع آخر ليَصرفها إليه ويحنط جهدها في المكان الذي يحدده سابقًا»[١].

وهذه الوضعية التي ما فَتئت تستهلك نشاطات الأمة الفكرية وتَحرمها من النظر في مشكلاتها الحقيقية؛ تتطلب خروجًا عاجلاً منها، وعدم التعامل مع العولمة بمنطق الرفض الانفعالي أو القبول المجاني، والذي يعبّر عن قصور شديد في قراءة الظاهرة، بل يتعيّن اتخاذ المبادرة باقتحام الواقع وخوض غِماره، والخروج من الهامشية إلى الفعل، لتتمكن من استيعاب معطيات الواقع وتصنيف مشكلاتها وتحليلها، وهذا الموقف الإيجابي لا يشكّل خطراً عليها، بل يُثريها ويُحرض فيها أسس الإبداع ويمدها بدفق من العناصر الحية التي تُبعد عنها أخطار الجمود والتحجر، وتفتح لها عالمًا يموج بالحركة والنشاط.

٦- تحريك العقل الإسلامي وإنتاج المعرفة: وهذا لا يتحقق إلا بالاعتراف بالأخطاء وممارسة النقد الذاتي، والسمو على النزعات القبلية والعرقية والإقليمية والمذهبية والطائفية الضيقة، وتعزيز شعور الانتماء إلى الأمة، وتنمية شعور الفرد بالجماعة، وتفعيل القوى البشرية والمادية باتجاه الأهداف المرسومة، وتمكينها لتأخذ دورها في حل مشاكل المجتمع بمشاركة حقيقية لا صورية[٢]، وتشكيل الإنسان المنتِج متعدِّد المهارات بما يناسب عصر العولمة، مثل استخدام الحاسوب

(١) عمر عبيد حسنة. نظرات في مسيرة العمل الإسلامي. ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) حمود عليمات. الثقافة الإسلامية وتحديات العولمة. مجلة إسلامية المعرفة. ع ٢٤. ٢٠٠١م. ص ١١٥.

والإنترنت وإتقان اللغات، ليتحرك العقل الإسلامي ويتحرر من قيوده ويستعد لإنتاج المعرفة التي هي البوابة المناسبة للولوج إلى ساحة العولمة بجدارة.

٧- قراءة الساحة العالمية الراهنة قراءة واعية فاحصة، والتعرف إلى مكونات الواقع وإدراك أبعاده إدراكًا صحيحًا مبنيًا على الدراسات الميدانية والملاحظات العلمية، ومعرفة القوى الفاعلة فيه وتقدير مبلغ تأثيرها في توجيهه وصناعة أحداثه، وتشخيص الواقع الثقافي الإسلامي تشخيصًا دقيقًا وصحيحًا؛ بعيداً عن كل تهويل أو استهانة، وعن كل العموميات والسطحيات والغموض في وقت يُجمع الباحثون فيه على أن «العالم الإسلامي اليوم تتقاسم عقول أبنائه المذاهب الفكرية والنظم السياسية المختلفة، وكلها تَهدف إلى تكوين جيل يتنكر لماضيه، وتُكسبه غطاءً ثقافيًا جديداً غريبًا»[1]، هذه القراءة تضع المسلمين أمام حقائق واضحة تُشخّص واقعهم، وتنير لهم سبل إيجاد مَخرج مناسب لأزمتهم الثقافية في مواجهة العولمة.

٨- المقاربات التكاملية: المنهج الذي يجب أن تعتمده الثقافة الإسلامية لمواجهة طغيان العولمة وتفادي آثار اختراقها للكيان الحضاري الإسلامي؛ شامل ومتكامل، يجمع بين البحث عن جذور الأزمة ومواطن الخلل وأصول المشكلات وحلولها، انطلاقًا من رؤية شمولية لواقع العالم الإسلامي؛ على مستوى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والعلم والتربية.

---

(١) عثمان محمد عثمان. تقليد الغرب لأشكاله وعواقبه. ص ٢٤.

الخاتمة ونتائج الدراسة

نخلُص إلى أن الثقافة الإسلامية التي تكونت نواتها الأولى في إطار القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة اللذين استمدت منهما أبعادها وخصائصها ومميزاتها، قد استلهمَت منهما مبدأ الانفتاح على الآخر، والتزمَت في انفتاحها بثوابتهما وأصولهما اللذين وجّهاها وأرشداها ورسَما لها أقوم منهج وسبيل، تستفيد فيه من الكسب البشري دون أن تَفقد أصالتها وجوهرها، وقد كانت الحضارة الإسلامية هي الوعاء الذي نضجَت فيه تجربة الانفتاح بشكل تام، وبرهنت لنا كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تنفتح على مختلف الحضارات والثقافات التي سبقَتها وعاصرَتها، وقد لاحظنا أن هذا الانفتاح قد تحكّمت فيه مجموعة من الشروط والضوابط التي وسَمت حركتها بالإيجابية والفعالية، واتسمت بجملة من الخصائص التي واكبت مسيرتها، وطبعَتها بطابعها، وكانت علامة بارزة عليها أكسبَتها التفرد والتميّز والأصالة، ومما لا شك فيه أن هذه التجربة الانفتاحية الرائدة تستحق منا التأمل والتحليل لتكون نبراساً لنا في زمن العولمة الذي يهدد كل الثقافات الضعيفة بالاستئصال والإبادة.

وقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، نوجزها فيما يلي:

١ - أن الانفتاح الثقافي قانون طبيعي يَسري بين البشر منذ فجر التاريخ، بحكم ميل الإنسان الفطري إلى الاطلاع على ما عند الآخر، وبمقتضاه تتفاعل الحضارات وتتلاقح الثقافات وتتراكم المعارف التي ما فتئت تسير بالإنسان عبر التاريخ من مرحلة إلى أخرى، حتى أسلمَته إلى واقعه المعاصر.

٢- أن الانفتاح الثقافي هو الذي يحافظ على التراث المعرفي عندما تنهار الحضارات وتسقط المدنيات، فكل حضارة تَرِث ما قبلها، وتتولى احتضانَ تراثها وتُغنيه بإبداعاتها وتضيف إليه ما تجود به قرائحُ أبنائها، ولولا انفتاح الثقافات بعضها على بعضٍ؛ لبدأَت كل مجموعة بشرية مسيرتها الحضاريةَ من الصفر، ولما شهدَت البشرية تقدماً يُذكر، فالحضارات تولَد وتموت، أما علومها ومعارفها وكنوزها الثقافية فتبقى ميراثاً للإنسانية.

٣- أن الانفتاح الثقافي مبدأ إسلامي أصيل، أسَّس له القرآن الكريم من خلال التأكيد على أن التعددية سنة كونية ثابتة تقتضي التعايش معها، وأن التعارف هو القيمة الأساس التي تحكُم العلاقات بين البشر، وأكَّدته السنة النبوية، وجسَّده الرسول ﷺ في سيرته الشريفة، الأمر الذي يُحيلنا إلى أن الانغلاق الثقافي آفة مدمرة، وعملية إبادة ثقافية تمُهد لانقراض الإنسان.

٤- أن الثقافة الإسلامية قد استوعبَت الأبعادَ النظرية لهذا الانفتاح، فمارسَته ممارسة حضارية راقية، وارتادت آفاقَه بقوة وثِقة، وسجَّل لها التاريخ أنها كانت هي المبادِرة باقتحام فضاء الآخر والدخول معه مبكراً في عملية انفتاح واسعة وعميقة ومُثمرة؛ طالت كل المنظومات المعرفية والإشكالات الفكرية التي وجدَتها لدى الآخر.

٥- أن عملية الانفتاح التي طبعَت الثقافة الإسلامية بطابعها؛ لم تكن ارتجالية اعتباطية عشوائية، بل كانت فعلاً واعياً محكوماً بجملة من الضوابط الشرعية التي أقرّتها مصادر الهداية (الكتاب والسنة)، منضبطة بشروط خاصة تحفظ عليها ثوابتها الحضارية، وتمكنّها من الاستفادة من الآخر

دون أن تتضرر ذاتها، فنهلت العلوم من المصادر المعرفية التي عرضَت لها ما شاء الله لها أن تنهل؛ معتمدة على حاستها النقدية الدقيقة التي لا تتبنى إلا النافع المفيد، والتزامها الحازم بهذه الشروط هو الذي جعَلها تقف موقفاً صارماً من الوثنيات اليونانية التي تُعَدُّ من عيون الأدب العالمي، فلم تنفتح عليها، وأعرضَت عنها إعراضاً تاماً لاصطدامها المباشر بأسس العقيدة الإسلامية.

٦- أن انفتاح الثقافة الإسلامية على الآخر قد تميَّز بجملة خصائص، أهمها التسامح الديني الكبير الذي تكاد تنفرد به مقارنة بالحضارات التي سبقتها أو جاءت بعدها، والذي أضفى عليها طابعاً إنسانياً رائعاً، وحرية الفكر والتعبير التي استقطبت الطاقات الفكرية على اختلاف توجهاتها واعتقاداتها؛ لتُسهم بصدق وفعالية في بناء صرح الحضارة الإسلامية، والتنوع الثقافي الذي ظهر في استفادتها من تراث الحضارات التي احتكت بها دون تمييز أو إقصاء أو عنصرية، والعمق والخصوبة اللذان ظهرا جليّيْن في جميع القطاعات الحيوية في المجتمع، ومسَّ كل صور الحياة.

٧- أن الثقافة الإسلامية أثناء انفتاحها على الآخر التزمَت بأخلاقيات مرجعيتها المقدسة، فضربت أروع الأمثلة في الأمانة العلمية، وبلغَت درجة راقية في احترام الملكية الفكرية، ونسبَت كل علم إلى مصدره، وكل فضل إلى أهله في ثقة عالية لا يشوبها ضعف.

٨- أن الثقافة الإسلامية قد أثبتت في انفتاحها على الآخر؛ أنها تملك جهاز هضم قويّاً جداً استطاع أن يمتص بقدرة عجيبة كل المنتوج الثقافي الثريّ الذي وجده أثناء سياحته في الأرض، وأنها استطاعت من خلاله أن تنقّي

ما يضرها وما ينفعها، ثم تتمثله وتنطلق منه في عملية إبداع رائعة سارَت بالبشرية أشواطًا واسعة في بناء الحضارة الإنسانية.

٩- أن انفتاح الثقافة الإسلامية على الآخر كان إيجابيًا وواعيًا بكل المقاييس، ومن أهم ثمراته اليانعة التي تدين الإنسانية له بها: محافظته على الثقافات القديمة واحترامه لها، حيث مثَّلت الثقافة الإسلامية جسر عبور انتقل منه هذا التراث الإنساني الغنيّ عبر الزمن إلى الحضارة الحديثة والمعاصرة.

١٠- أن الثقافة الإسلامية- بعد عصور التألق والازدهار- قد اعتراها الضعف والفتور، وتركَت صدارة المكان للثقافة الغربية الحديثة التي ناصبَتها العداء وحاربَتها بكل شراسة، وهي اليوم تعيش وضعًا مهتزاً بعد أن تطورت الظاهرة الاستعمارية إلى موجة إمبريالية، ثم ظهرَت في شكل عولمة تُطوق العالم من كل جانب، وتهدد بنسف كل الهويات الثقافية التي تصطدم قيمها ومقولاتها مع النموذج الغربي.

١١- أن الثقافة الإسلامية بحاجة ماسة إلى استراتيجية شاملة تمُكّنها من بلورة حلول مبدعة وجديدة لمشاكلها، وتعينها على إعادة بناء ذاتها وفق معطيات العصر، وتمهد لها السبيل لاقتحام الواقع بقوة، والتفاعل مع حركة العولمة للاستفادة من إيجابياتها وتفادي سلبياتها، ومن أهم وأخطر السبل التي تسهل لها ذلك: امتلاك تقنية المعلومات التي تُعد البوابة السحرية التي تَعبر بها نحو العولمة وتدمجها في حركتها كطرف فاعل.

١٢- أن الثقافة الإسلامية اليوم قادرة على إعادة تجربة الانفتاح الإيجابي على الآخر في زمن العولمة، والاستفادة من هذا الزخَم المعرفي إذا استهدت بتجربة الحضارة الإسلامية واقتبَسَت منها أصول المعاملة

وأساليب الانفتاح، والتزمت بشروطه وضوابطه، وقرأت هذه الظاهرة قراءة صحيحة، ووقفَت على مميزاتها ووسائل التعامل معها.

١٣- أن فِعل الانفتاح في تجلياته الإسلامية من حيث المفهوم والأبعاد والخصائص والموقعية والضوابط والشروط؛ يمكِن أن يشكّل في مجمله نظرية متكاملة المعالم، تؤسس للعلاقة التواصلية بين الأنا والآخر في زمن العولمة، بالنظر إلى ثراء هذه التجربة وريادتها، وثبوت مصادرها المعصومة، وحاجة المسلمين المُلحة إليها لتحديد موقعهم في العالم بشكل متميّز، وعطاء حضاري مختلف يتَّحد مع باقي الثقافات الإنسانية الحية والعاملة، لتقويض أسس السيطرة الأحادية، وتعزيز إطار التعددية الثقافية الكونية في إطار الاحترام والتعاون والتفاعل الثريّ.

قائمة المصادر والمراجع

١- أمين الخولي. المجددون في الإسلام. دار المعرفة. بيروت. ط١. ١٩٦٥م.

٢- أحمد بن أبي طاهر طيفور. تاريخ بغداد. تصحيح: محمد زاهد الكوثري. القاهرة. ١٩٤٩م.

٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. دار الثقافة. بيروت. ط٣. ١٩٨١م.

٤- برهان غليون وسمير أمين. ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. دار الفكر. دمشق. ط١. ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٥- بنو موسى بن شاكر. كتاب معرفة مساحة الأشكال. تحرير نصير الدين الطوسي.

٦- جمال محمد أحمد. وجدان إفريقيا. طبعة الخرطوم. السودان، ١٩٧٤م.

٧- جورج سارتون. تاريخ العلم. ترجمة: محمد خلف الله وآخرين، القاهرة. طبعة ١٩٥٧ م.

٨- ج. - هرنشو: علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، دار الحداثة للطباعة والنشر. ط١. ١٩٨٨م.

٩- أبو الحسن علي الحسني الندوي. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ دار القرآن الكريم. بيروت. ١٩٧٨م.

١٠- أبو الحسن الماوردي. أدب الدنيا والدين. شرح وتعليق: محمد كريم راجح. دار اقرأ. بيروت. ط١. ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

١١- أبو حيان التوحيدي. كتاب الإمتاع والمؤانسة. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.
١٢- رجب سعيد شهوان وآخرون. دراسات في الثقافة الإسلامية. مكتبة الفلاح. الكويت. ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٣- رياض أدهمي. دليل الثقافة الإسلامية. المركز الأمريكي لدراسات الحضارة والثقافة. كاليفورنيا. ١٩٩٣م.
١٤- رمضان الصباغ. العلم عند العرب وأثره في الحضارة الأوروبية. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. الإسكندرية. ط١. أغسطس ١٩٩٨ م.
١٥- ستانوود كوب. المسلمون في تاريخ الحضارة. ترجمة: محمد فتحي عثمان. ديوان المطبوعات الجامعية. ط ١. ١٩٨٢م.
١٦- سيد قطب. خصائص التصور الإسلامي. دار الشروق. القاهرة. ١٩٩٧ م.
١٧- شوقي ضيف. العصر العباسي الأول. سلسلة تاريخ الأدب العربي. رقم ٣. دار المعارف. القاهرة، ط ٩. ١٩٨٦م.
١٨- طه جابر العلواني. كيف نقتحم متغيرات المستقبل من خلال ثوابت الماضي. كتاب المعرفة. المملكة العربية السعودية. ط١. ١٩٩٩م.
١٩- طه ندا. الأدب المقارن. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.
٢٠- الطيب برغوث. الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية. دار البعث. قسنطينة. الجزائر.
٢١- عبد الله إبراهيم. المركزية الغربية: إشكالية التكون والتمركز حول الذات. المركز الثقافي العربي. بيروت. ط١. ١٩٩٧م.
٢٢- عبد السلام الأحمر. ثقافة الأمة الوسط. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو. ١٤٣٠ - ٢٠٠٩.

٢٣- عبد العزيز بن عثمان التويجري. الثقافة العربية والثقافات الأخرى. فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة. الرياض. مارس ١٩٩٨م.
٢٤- عثمان محمد عثمان. تقليد الغرب لأشكاله وعواقبه. دار الرشيد. دمشق. ١٩٩٩م.
٢٥- علاء طاهر. العالم الإسلامي في الاستراتيجيات العالمية المعاصرة. مركز الدراسات العربي الأوروبي. باريس. فرنسا. ط١. ١٩٩٨ م.
٢٦- علي عبد الله الدفاع. العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٩٨٣ م
٢٧- علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف بمصر. ط ٥. ١٩٧١م.
٢٨- عماد الدين خليل. حول إعادة تشكيل العقل المسلم. كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. الدوحة. قطر. ط ١. ١٤٠٣هـ
٢٩- عمر عبيد حسنة. نظرات في مسيرة العمل الإسلامي. دار الشهاب. باتنة. الجزائر.
٣٠- غازي بن عبد الرحمن القصيبي. العولمة والهوية الوطنية. مكتبة العبيكان. الرياض. ط١. ١٤٢٣ هـ. ٢٠٠٢ م.
٣١- فيليب حتّي وآخرون. تاريخ العرب. دار غندور. بيروت. ط ٥. ١٩٧٥م
٣٢- كراوثر، ج. قصة العلم. ترجمة: يُمنى الخولي وبدوي عبد الفتاح. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ١٩٩٨ م
٣٣- لبيب عبد الساتر. الحضارات. دار المشرق. بيروت. ط ١٠. ١٩٨٣م.
٣٤- مالك بن نبي. في مهب المعركة. دار الفكر. دمشق.
٣٥- مالك بن نبي. مشكلة الثقافة. دار الفكر للطباعة والنشر. دمشق. ١٩٨٤م.

٣٦- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط١. ١٩٧٨ م.
٣٧- محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
٣٨- محمد عمارة وآخرون. العالم الإسلامي والنظام الدولي: الخلفية التاريخية والتحولات المعاصرة. مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط١. ١٩٩٢م.
٣٩- محمد عمارة. استراتيجية التنصير في العالم الإسلامي. مركز دراسات العالم الإسلامي. مالطا. ط١. ١٩٩٢م.
٤٠- محمد عمارة. العطاء الحضاري للإسلام. مكتبة الشروق الدولية. ط١. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٤١- منصور مرشو غريغوار. نحن والآخر. دار الفكر، دمشق، سوريا.
٤٢- نصر محمد عارف. الحضارة - الثقافة - المدنية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط٢. ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٤٣- هل، ي. الحضارة العربية ترجمة إبراهيم أحمد عدوي. دار الهلال القاهرة ١٩٧٩.
٤٤- وِل ديورانت. قصة الحضارة ، عصر الإيمان.. منشورات جامعة الدول العربية. ١٩٥٧ م.
٤٥- يُمنى طريف الخولي. فلسفة العلم في القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون. الكويت. ديسمبر ٢٠٠٠م.
٤٦- يوسف القرضاوي. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق. دار الشروق. القاهرة. ط١. ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

المجلات والدوريات

٤٧- مجلة رسالة الجهاد. س ٨. ع ٨٠. سبتمبر ١٩٨٩ م. س٩، ع ٨٨، مايو ١٩٩٠م، ع ٩٤، ١٩٩٠ م. مالطا.

٤٨- مجلة الفيصل. الرياض. ع ٧٢. .١٩٨٣

٤٩- مجلة التجديد العربي. ٠١ أغسطس .٢٠٠٧

٥٠- مجلة المنطلق. ع ١٠٥. أيلول ١٩٩٣م. بيروت.

٥١- مجلة عالم الفكر. مج ٢٨. ع ٢. أكتوبر - ديسمبر ١٩٩٩م. الكويت.

٥٢- مجلة إسلامية المعرفة. ع ٢٤. ٢٠٠١ م. المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية.

المواقع الإلكترونية

53- http://www.alukah.net/culture/0/862

54- http://www.qou.edu/arabic/conferences/socialResponsibilityConf/dr_sulimanKaied.pdf

55- http://islamstory.com/ar/